جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

لامية شيخ البطحاء
فى مدح خير الأنبياء

دراســـة بلاغيــة

الدكنور
ممدوح شعراوى محمود محمد
مدرس البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

العدد السادس عشر
للعام ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م
الجزء الأول

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصـــلاة والســـلام علـــى أشـــرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحســـان إلى يوم الدين .

وبعـــد

فقد وُجد فى مطلع البعثة المحمدية وبدايـــة دعوتهـــا رجـــال عظماء ، كانوا مثالا يحتذى فى التضحية والفداء ، وإعـــلاء كلمـــة الحق ، ورفع راية الخير ، وبتر ساعد الشرِّ، ويشهد التاريخ لأولئك السادة الأماجد بما قدموه للدعوة من تالدٍ وطريف ، ونفيس وشريف، فى سبيل الوصول بسفينتها إلى بَرِّ الأمان.

وفى مقدمة هؤلاء المشاهير أبو طالب عم النبى ﷺ ، فعنـــدما بزغ فجر الإسلام على بطحاء مكة، وحاولت قريش إطفاء ذلك النور، كان أبوطالب – شيخ البطحاء – أول من ناصر ابن أخيه – ﷺ – وذاد عنه وحماه ، وَردَّ مَنْ يريد ظلمه وأذاه ، وكان أولَ مَنْ سَـــكَبَ فى مسامع الدهر نشيداً يمدح به ابن أخيه ، ويعلن فيه دفاعه عنـــه وعن دعوته، حتى يُصَرَّع دون ذلك هووعشيرته .

وتُعدُّ لامية أبى طالب – التى نحن بصدد الحـــديث عنهـــا – أشهرَ شِعْرِه على الإطلاق، حتى بلغ حدُّ الإعجاب بها أن قال عنهـــا

ابن كثير: "هى قصيدة بليغة جداً ، لا يستطيع أن يقولها إلا مَنْ نُسبتْ إليه" (١) ، ويقول ابن سلام واصفاً أبا طالب وقصيدته اللامية:

" كان شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ما قاله قصيدته التى مدح فيها النبى ﷺ والتى منها :

وأبيضَ يُستسقى الغَمامُ بوَجهه ∴ ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرَامِلِ (٢)

وقد عَقَّبَ ابن أبى الحديد فى معرض حديثه عن شعر أبى طالب بقوله:

فكل هذه الأشعار – يعنى شعر أبى طالب – جاءت مجىء التواتر، ثم سأل عن القصيدة اللامية بقوله: ما قولكم فى القصيدة اللامية التى شهرتها كشهرة " قفا نبك" وإن جاز الشك فيها أوفى شىء من أبياتها جاز الشك فى "قفا نبك" وفى بعض أبياتها(٣)

وقد لقيت هذه اللامية إقبالاً عجيباً من العلماء والأدباء وشرحت شروحا عديدة منها:

١. شرح السهيلى فى كتاب الروض الأنف(٤)

٢. شرح عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب(١)

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٩١/١ ، تح/ مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة – بيروت – لبنان ١٣٩٦هـ/١٩٧١م

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ٢٤٤/١ ، تح/ محمود محمد شاكر – دار المدنى – جدة .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧٨/١٤ تح/محمد أبوالفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى .

(٤) ينظر: الروض الأنف للسهيلى ٢٣/٣ ، تح/ عمر عبد السلام السلامى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – ط الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

٣. طلبة الطالب بشرح لامية أبى طالب[٢]

٤. غاية المطالب فى شرح ديوان أبى طالب[٣]

٥. زهرة الأدباء فى شرح لامية شيخ البطحاء[٤]

وقد شرح هؤلاء السادة الأعلام هذه القصيدة شرحاً أدبياً وافياً بالغرض المؤمِّ منها ، ومنهم من شرحها شرحاً لغوياً كـــ (عبد القادر البغدادى) فى خزانة الأدب.

وكان كل ما سبق سبباً فى إغراء الباحث بدراسة تلك القصيدة دراسة بلاغية ، تميط اللثام عن وجوه البيان بها ، وتكشف النقاب عن جواهر المعانى فيها ، وتستخرج جماليات البديع منها، لتكتمل بذلك جوانب الدراسة فيها " الأدبى – اللغوى – البلاغى " إضافة إلى ذلك الرغبة فى أن يكون شرحها وسيلة للقرب ممن قيلت من أجله – ﷺ – وسبباً فى شفاعته يوم الدين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء ٨٨ ، ٨٩].

هذا وقد وردت هذه القصيدة بأكثر من رواية – على حسب من شرحها كما سبق – وقد اخترت بعون الله رواية العلامة (عبد القادر

---

(١) ينظر: خزانة الأدب للبغدادى ٢/٥٥ ، وما بعدها ، تح / محمد نبيل طريفى – إميل بديع يعقوب – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨م

(٢) تأليف على فهمى – مطبعة الروشن باستامبول ، ١٣٢٧هـ .

(٣) تأليف محمد خليل الخطيب – مطبعة الشعراوى – طنطا – ١٩٥٠م .

(٤) تأليف جعفر النقدى – النجف الأشرف – المكتبة الحيدرية – ١٣٥٦هـ .

البغدادى) لتكون محل الدراسة والتحليل ، لمجىء الأبيات التى رواها البغدادى فى كلِّ روايةٍ سابقةٍ أو لاحقةٍ عليه٠ كما اشتملت عليها رواية الديوان .

إضافة إلى أن العلامة البغدادى صاحب كَعْبٍ عالٍ فى اللغة والأدب ،وأنه ثقة فيما يروى وينقل عن اللغة وأصحابها ، وخير دليل على ذلك شهادة تلميذه العالم الجليل المُحِبِّى الحَمَوى له،حيث يقول : " عبد القادر البغدادى أديب مصنف رّحَّال ، باهر الطريقة فى الإحاطة بالمعارف، والتضلع من الذخائر ، كان بارعاً فاضلاً مُطلعاً على كلام العرب وأشعارهم ، على اختلاف طبقاتهم ، وهوأحسن أهل عصره معرفة باللغة والأشعار والحكايات البديعة ، مع الثبت فى النقل، وزيادة الفضل ، ومناسبة إيراد كل شىء فى موضعه، مع اللطافة وقوة المذاكرة وحسن المنادمة "[(١)] .

فكل ذلك يجعل النفس مطمئنة إلى رواية هذا العالم الفاضل لتلك القصيدة الرائعة ٠ومن هنا جاءت هذه الدراسة تحت عنوان :

(لامية شيخ البطحاء فى مدح خير الأنبياء دراسة بلاغية)

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتى فى سياقات سبع ، تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة وبعض الفهارس ٠

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تلك الدراسة اتخذت من المنهج التحليلى طريقاً تسير عليه فى هذا البحث ؛ لتصل من خلاله إلى

---

(١) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى الحموى٢/٤٥١ – ٤٥٢ دار الكتاب الإسلامى القاهرة.

بعض من مكنون أسرارها، وشىء من خبايا أنوارها ، لعلها تكون مطية لشارحها تقربه ممن كان سبباً فى إنشائها -ﷺ-.

مناسبة القصيدة:

لما رأت قريش إصرار النبى ﷺ على دعوته وازدياد عدد المؤمنين به ، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر - رضى الله عنهما - أجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب مقاطعة تامة ، فلا زواج ولا شراء ولا بيع ولا مخالطة لأحد منهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وسجلوا ذلك فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبه.

وإزاء هذه المقاطعة الجائرة انتقل بنوهاشم وبنوعبد المطلب ، ومعهم رسول الله ﷺ إلى شِعْبٍ كان يطلق عليه شِعْبُ أبى طالب بظاهر مكة يعانون الحرمان ألوانا ،واستمرت هذه المقاطعة ثلاثة أعوام متتابعة ، ومع ذلك ضربوا أروع الأمثلة فى الصبر والاحتمال، وكان أبوطالب يعلن فى قريش - مراراً - أنه سيظل مؤيداً لابن أخيه محمد ﷺ مهما بلغت التضحيات وعظمت المتاعب.[١]

وكان من جملة ما قاله فى نادى قريش منذراً لهم عاقبة أمرهم:

١ـألا أَبْلِغَا عَنّى عَلَى ذاتِ بَيْنِنا ∴ لُؤَيّاً وخُصَّا مِنْ لُؤيٍ بنى كَعْبِ
٢ـأَفيْقوا أفيْقوا قبلَ أنْ يُحفرَ الثرى ∴ ويُصبحَ مَنْ لمْ يَجْنِ ذنباً كذي ذَنْبِ
٣ـولا تَتْبَعوا أمرَ الوُشَاةِ وتَقْطعوا ∴ أواصِرَنا بعدَ المودةِ والقُرْبِ

(١) ينظر: القول المبين فى سيرة سيد المرسلين١٤٧ د/محمد طيب النجار -دار الندوة الجديدة - بيروت

٤-وتَسْتَجْلبوا حَرْباً عَوَانا ورُبَّما .·. أَمَرّ على مَنْ ذاقه جَلَبُ الحربِ
٥-فَلَسْنا وربِّ البيتِ نُسلمُ أحمدا .·. لعَزَّاء من عَضّ الزمانِ ولا كَرْبِ
٦-ولسنا نملُّ الحربَ حتى تَمَلَّنا .·. ولا نشتكى ما قدْ ينوبُ من النَّكْبِ
٧-ولكنَّنا أهلُ الحفائظِ والنهى .·. إذا طارَ أرواحُ الكُماةِ من الرُّعْبِ(١)

ثم انصرف إلى الشعب وقال هذه اللامية وهى:

١-خَلِيلَىّ ما أُذْنى لِأَوَّلِ عَاذِلٍ .·. بِصَغْواءَ فى حَقٍّ ولا عِنْدَ باطلِ
٢-خَليلىَّ إنَّ الأمرَ ليس بِشَرْكَةٍ .·. ولا نَهْنَهٍ عندَ الأُمورِ البَلابلِ
٣-ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ عِنْدهم .·. وقدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائلِ
٤-وقد صَارحُونا بالعداوةِ والأذَى .·. وقدْ طَاوَعُوا أمْرَ العَدوالمزَايلِ
٥-وقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً .·. يَعُضُّونَ غيظاً خلفَنَا بالأنامِلِ
٦-صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سَمْحةٍ .·. وأبيضَ عَضْبٍ من تُراثِ المقَاولِ
٧-وأحضرتُ عندَ البيتِ رَهْطى وإخْوتى .·. وأمسكتُ من أثوابِه بالوَصَائلِ
٨-قياماً معاً مُسْتقبلينَ رِتَاجَه .·. لدى حيثُ يَقْضى حِلْفَه كُلُّ نَافلِ
٩-أعوذُ بربِّ الناسِ من كلِّ طاعنٍ .·. علينا بسُوءٍ أومُلِحٍّ ببَاطِلِ
١٠-ومِنْ كاشحٍ يَسْعى لنا بمَعيبَةٍ .·. ومِنْ مُلحِقٍ فى الدينِ مَالَمْ نُحَاولِ
١١-وثَوْرٍ ومَنْ أرْسى ثَبِيراً مكانَه .·. وراقٍ لِبِرٍّ فى حِراءٍ ونَازلِ
١٢-وبالبيتِ حَقِّ البيتِ مِنْ بَطْنِ مكةٍ .·. وباللهِ إنَّ اللهَ ليسَ بغَافلِ
١٣-وبالحجرِ الأسودِ إذْ يَمْسحُونَه .·. إذا اكْتَنفُوه بالضُّحى والأَصَائلِ
١٤-وموطىءِ إبراهيمَ فى الصخرِ رطبةً .·. على قَدَميه حافياً غيرَ ناعِلِ
١٥-وأشواطِ بينَ المَروتينِ إلى الصَّفا .·. وما فيهما مِنْ صُورةٍ وتَمَاثِلِ
١٦-ومَنْ حجَّ بيتَ اللهِ مِنْ كلِّ راكبٍ .·. ومِنْ كُلِّ ذى نَذْرٍ ومِنْ كُلِّ رَاجِلِ
١٧-فهلْ بعدَ هذا مِنْ مُعَاذٍ لعائذٍ .·. وهلْ مِنْ معيذٍ يَتقى اللهَ عادِلِ
١٨-يُطاعُ بنا الأعْدا وَوَدُّوا لَوانَّنا .·. تُسدُّ بنا أبوابُ تُرْكٍ وكَابُلِ
١٩-كذبتمْ وبيتِ اللهِ نَتْركَ مكةً .·. ونظعنَ إلا أمْرُكمْ فى بَلابلِ
٢٠-كذبتم وبيتِ اللهِ نُبْزى محمداً .·. ولَمّا نُطاعنْ دونَه ونناضِلِ
٢١-ونُسْلِمه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَه .·. ونُذْهلَ عن أبنائنا والحلائلِ
٢٢-وينهضَ قومٌ فى الحديدِ إليكمُ .·. نُهوضَ الرِّوايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصِلِ

---

(١) ديوان أبى طالب ص٢٧وما بعدها شرح د/محمد التونجى - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الأولى١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

٢٣ـوحتى تَـرى ذَا الضِّـغْنِ يركبُ رَدْعَـه ∴ مـنَ الطَّعْـنِ فِعْلَ الأَنْكَـبِ الْمُتَحَامـلِ
٢٤ـوإنّـا لعَمْـرُ اللهِ إنْ جَـدَّ مـا أَرَى ∴ لَتَلْتَبِسَـــنْ أَسْـــيَافُنا بالأَمَاثِـــلِ
٢٥ـبكَفّىْ فتـىً مِثْـلَ الشِّـهابِ سَمَيْدَعُ ∴ أَخِـى ثقـةٍ حـامى الحقيقـةِ باسِـلِ
٢٦ـومـا تـركُ قـومٍ لا أَبَالـك سـيداً ∴ يحُـوطُ الـذِّمارَ غـيرَ ذربٍ مُوَاكـلِ
٢٧ـوأبيضَ يُستسـقى الغَمـامُ بوَجْهـه ∴ ثِمـالُ اليتـامى عِصْـمةٌ للأرَامـلِ
٢٨ـيلـوذُ بـه الهُـلاَّكُ مِـنْ آلِ هَاشـمٍ ∴ فَهُـمْ عنـده فـى نعمـةٍ وفَوَاضِـلِ
٢٩ـجَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شمسٍ ونـوفلاً ∴ عُقوبـةَ شَـرٍّ عـاجلاً غَيْـرَ آجِـلِ
٣٠ـبميـزانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعيْرَةً ∴ لـه شـاهدٌ مِـنْ نَفْسـهِ غـيرُ عائـلِ
٣١ـونحـنُ الصـميمُ مِـنْ ذُؤابـةِ هاشـمٍ ∴ وآلِ قُصَـىٍّ فـى الخُطـوبِ الأَوائـلِ
٣٢ـوكـلُّ صـديقٍ وابـنِ أخـتٍ نَعُـدُّه ∴ لَعَمـرِى وَجَـدْنا غِبَّـهُ غَيْـرَ طائـلِ
٣٣ـسوى أنَّ رَهطاً مـن كـلابِ بـنِ مُـرَّةٍ ∴ بَـــرَاءُ إلينـــا مِـــنْ مَعَقَّـــةِ خَـــاذِلِ
٣٤ـونِعْمَ ابنُ أختِ القومِ غَيُـر مُكَـذَّبٍ ∴ زهـيرٌ حُسـاماً مفـرداً مِـنْ حَمَائِـلِ
٣٥ـأَشَـمُّ مـن الشُّـمِّ البَهاليـلِ يَنْتمـى ∴ إلى حَسَـبٍ فـى حَوْمـةِ المجـدِ فَاضِـلِ
٣٦ـلعَمرى لقـدْ كُلِّفتُ وَجْـداً بأحمـدٍ ∴ وإخْوَتِـــه دَأْبَ الْمُحِـــبِّ المواصـــلِ
٣٧ـفلا زالَ فى الـدنيا جَمـالاً لأَهْلِهـا ∴ وَزْينـــاً لِمَـــنْ وَلاَّهُ ذَبَّ الْمَشَـــاكِلِ
٣٨ـفَمـنْ مِثْلُـه فـى النـاسِ أَىُّ مُؤَمَّـلٍ ∴ إذا قَاسـه الحكـامُ عِنْـدَ التَّفَاضُـلِ
٣٩ـحليـمٌ رشـيدٌ عـادلٌ غـيرُ طـائشٍ ∴ يُـوالِى إلهـاً لـيسَ عَنْـهُ بِغَافِـلِ
٤٠ـفَأَيَّـــدهُ رَبُّ العبـــادِ بِنَصْـــرِه ∴ وأظهـرَ دينـاً حَقُّـه غـيرُ نَاصِـلِ
٤١ـفـواللهِ لَـوْلا أنْ أَجِـئَ بسُـبَّةٍ ∴ تَجُـرُّ علـى أَشْـياخِنا فـى القَبائِـلِ
٤٢ـلكنَّـا اتَّبعَنـاه عَلـى كُـلِّ حَالـةٍ ∴ مِنَ الـدَّهْرِ جِـداً غـيرَ قَـوْلِ التَّهَازُلِ
٤٣ـلقـد عَلمـوا أنَّ ابنَنَـا لا مُكَـذَّبٌ ∴ لَـدينا ولا يُعْنَـى بقـولِ الأَبَاطـلِ
٤٤ـفأصـبحَ فينـا أحمـدٌ فـى أرومـةٍ ∴ يُقَصِّـر عنهـا سُـورةُ المتطَـاوِلِ
٤٥ـحَـدَبْتُ بنفسـى دُوْنَـه وحَمَيْتُـهُ ∴ ودافعـتُ عنـه بالـذُّرَا والكَلاَكِـلِ (١)

---

(١) ديوان أبى طالب ، ص ٦٣ وما بعدها

سياقـــات القصيـــدة

- أولاً : مطلع القصيدة .
- ثانياً : المُعاداة والصبر عليها .
- ثالثاً : الاستعاذة بالله ومقدسات العرب .
- رابعاً : النَّعْىُ على قريش ما فَعَلتْ وإظهارُ الشجاعة فى الـــدفاع عن النبى ونصرته.
- خامساً : الحجة على التأييد والنصرة ، مع توبيخ مَـــنْ وافقـــوا قريشاً على مقاطعتهم ، ثم الفخر بأصالة النسب .
- سادساً : الافتقار إلى أهل النصرة ، مع مدح مَنْ سَعَوْا فى نقض الصحيفة .
- سابعاً : المديح النبوى .

الربط بين تلك السياقات وعلاقاتها ببعض

الناظر إلى تلك السياقات التى بُنيتْ عليها أجـــزاء القصـــيدة ، والمراجع النظر فيها يبين له أن هناك خيطاً واحداً تحـــاك بـــه تلـــك الأجزاء ، ويربط أولها بآخرها ، ألا وهو " محبة أبى طالب للنبـــى – ﷺ – محبة يقف دونها كل شئ ، ويهون فى سبيلها كل صعب .

فمن أجل تلك المحبة رفض الإصغاء إلى عذل العـــاذل ولـــوم اللائم له فى دفاعه عن ابن أخيه ، وبسببها عاداه قومه ، وامتطـــوا صهوة الأذى فى سبيل إثنائه عما هو عليه ، ومع ذلك صـــبر عمـــا لاقى منهم بشجاعة وبسالة ، وللداعى نفسه استعاذ بالله ومقدســـات

العرب من شرور قريش وغلوائها ، ومن أجلها نعى علـــى قـــريش قطيعتها ، وأظهر الشجاعة فى دفاعه عن النبى – ﷺ – ونصرته .

وللباعث ذاته بيَّن الحجة على تأييد ابن أخيه ونصرته ، ووَبَّخَ مَنْ وافق قريشاً على قطيعتها .

وبسببها افتقر إلى أهل النصرة والتأييد ، ولأجل المحبة مـــدح مَنْ سعى فى نقض صحيفة قريش . ولأجلها ختم قصـــيدته بالمـــدح لخير الخلق – ﷺ – .

ومن ثم فإن تلك المحبة هى بيت القصـــيد ، وواســـطة العقـــد النضيد فى بناء عمود تلك اللامية ، وهى الروح التى تســـرى فـــى جنبات تلك القصيدة ؛ لتبعث بين أجزائها التجاذب والتقارب ، بمـــا لا يجعلك تشعر بالفجوة بين مقدمتها ووسطها ونهايتها ، وهذا بلا شك مما يحسب للشاعر، ويُعلى كَعْبَه فى ميدان البيان ، وفى ساحات أهل القول وفصيحى اللسان .

أولا : مطلع القصيدة

خَلِيلَىّ ما أُذْنى لِأَوَّلِ عَاذِلٍ ∴ بِصَغْواءَ فى حَقٍّ ولا عِنْدَ باطِلِ
خَليلىَّ إنَّ الأمرَ ليسَ بِشِرْكَةٍ ∴ ولا نَهْنَهٍ عندَ الأُمورِ البَلابِلِ

الناظر إلى أول ما استهل به أبوطالب هذه اللامية يرى أنه بدأها بخطاب التثنية حيث قال: (خليلىَّ)، وخطاب التثنية جاء "جَرْياً على عادة الشعراء ، إذ يتخيل أحدهم أن له رفيقين يَصْحبانه فى غُدوه ورَواحه ، فيوجه إليهما الخطاب، ويفضى إليهما بسرِّه وبمكنونِ صدره [١] ليجد منفذاً للترويح عن نفسه، وتبديد معاناته من ظلم قريش ومعاداتها لابن أخيه ﷺ [٢]

وقد سبق أبا طالب فى هذا الشأن غيره من الشعراء المعروفين، من ذلك قول امرئ القيس:

خليلىّ مُرَّا بى على أمِّ جُنْدُبٍ ∴ نُقَضِّى لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ [٣]

وقول عنترة ابن شداد:

خَليلىّ أمسى حُبُّ عَبْلَةَ قاتلى ∴ وبأسى شَديدٌ والحُسَامُ مُهَنَّدُ [٤]

ومعلوم أن "خليلى" فى قول أبى طالب منادى حذف منه حرف النداء، وأن أصل الكلام: يا خليلى، ولكن مجىء الكلام خالياً من حرف النداء فيه دلالة على شدة القرب والاقتران بين أبى طالب

---

(١) البلاغة الواضحة لعلى الجارم ١٧٩ – دار المعارف – القاهرة .
(٢) ينظر: شعر أبى طالب دراسة أدبية د/ هناء عباس كشكول ، مكتبة الروضة الحيدرية – الكوفة كتاب على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) الفصل الخامس ص٣ .
(٣) ديوان امرئ القيس شرح عبد الرحمن المصطاوى ٧٤ – دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط الثانية ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
(٤) ديوان عنترة بن شداد، ص٣٧ ، مكتبة الآداب – بيروت١٨٩٣م.

وخليليه ، مع ما بينهما من ملاطفة ومسامحة ، ومِنْ ثَّمَ كان النداء بـ (خليلَىَّ) دون صاحبىّ أو رفيقىّ ، وذلك لأن الخليل هو: من تخللتْ محبته فى قلبك وأُشربتْ مودته فى فؤادك [١] حتى إنك تسمع له وتطيع دون أن تراجعه - فى كثير من الأحيان - حيث " إنَّ المُحبَّ لمَنْ يُحبُّ مُطيعُ[٢] " ، ومع هذا الحب وتلك المودة والخُلة التى بين أبى طالب وخليليه ، تراه ينفى عنهما طاعته إنْ لامَاهُ فى شىء من محبته لابن أخيه ودفاعه عنه ، فتراه يقول: " ما أُذْنى لأَوَّلِ عاذلِ بِصَغْواءَ فى حَقٍّ ولا عنْدَ باطلِ " .

و(ما) فى قوله :(ما أُذْنى) هى النافية وهى حجازية ، و(أُذْنى) اسمها وقوله (بصغواء) خبر(ما) النافية ، والأصل: ما أذنى بصغواء لأول عاذل[٣] وفى قول الشاعر : (ما أذنى ..... بصغواء) ، مجاز مرسل علاقته الجزئية [٤] لأن الأذن جزء من جسم الشاعر ، وإنما خصها بالذكر دون بقية الجسد لأنها محل السمع وقرع الخطاب .

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور ٢١١/١١ – دار صادر بيروت – ط الأولى .

(٢) ديوان الإمام الشافعى ٧٣ ، تح/ محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة .

(٣) ينظر: خزانة الأدب٥٣/٢

(٤) ينظر: جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع للهاشمى ٢٥٣ ، تح/ يوسف الصميلى – المكتبة العصرية – بيروت .

والعَذْلُ: اللومُ على أمرٍ يراه المتكلم خطأً [١] ولهذا يُتبعُ بـــالرَّدِ عليه – غالباً – تدبر قول الشاعر :

زعم العواذلُ أنّ ناقةَ جُندبٍ ∴ بجَنوبِ خَبتٍ عُرّيتْ وأجَمّتِ
كذبَ العواذلُ لورأينَ مَناخَنا ∴ بالقادسيةِ قُلنَ لَجَّ وذَلَّتِ

وكذلك قول جابر ابن ثعلبة الطائى:

وقام إلىّ العاذلاتُ يَلُمنني ∴ يَقُلنَ ألاَ تَنفكُ تَرحَلُ مُرَحَّلاَ
فإنَّ الفتى ذا الحزمِ رام بنفسه ∴ جَواشِنَ هذا الليلِ كى يَتَمَوَّلا [٢]

والصَّغْو: الميل ، وأَصغيتَ إلى فلان إذا مِلْتَ بسمعك نَحْوَه[٣]

وقدم الشاعر الجار والمجرور(لأولِ عاذلٍ) على مُتعلقِـــهِ (صَـــغْواء) للاهتمام بأمره ؛ ليدل على أنه إذا لم يقبلْ عذْلَ العاذلِ الأول فمِنْ باب أَوْلى ألا يقبل عذلَ العاذل الثانى ، أوما عداه ، فإنَّ النفس إذا كانـــت خالية الذهن ففى الغالب أن يستقر فيها أول ما يَرِدُ عليها[٤] ومن هنا دلَّ على أنه حسم مادة سماع العذل لأول عاذل بعدم الإصغاء إليـــه، فعدم إصغائه لمن سواه أولى[٥] .

وفى مجىء جملة النفى اسمية (ما أذنى لأول عاذل بصغواء) دون أن يجعلها فعلية ، فيقول مثلاً : (خليلى ما أُصغى لأول عـــاذل)؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام وكأنّ عدم إصغائه لعذل

---

(١) ينظر: لسان العرب ٤٣٧/١١

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣٠٤/١ ، ٣٠٨ ، تح/عبد السلام هارون – طبعة دار الجيل – بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م .

(٣) ينظر: المصباح المنير للفيـــومى ٣٤٢/١ – المكتبـــة العلميـــة – بيروت .

(٤) ينظر:خزانة الأدب ٥٩/٢ .

(٥) ينظر: غاية المطالب ، ١٠٠ .

العاذل أمرٌ ثابت دائم لا يعتريه تغير أو تحـول ، فـلا مجـال للّـوم أوالعتاب على ما هوفيه من دفاعه عن رسول الله ﷺ ، وزيدت الباء فى (بصغواء) وكان من الممكن أن يقول مثلاً: (خليلى مـا أُذْنِـيَ صغواء) لتأكيد هذا النفى تأكيدا ينفى معه احتمال أن يكـون منـه إصغاء أوانتباه إلى قول عاذله ، سواء كان عاذله على حـق فيمـا يلومه فيه ، أو كان على باطل ويريد مشاركته له فى شأنه.

ومما يلاحظ فى جملة النفى أنه عبر عن اللوم فى أمر الحـق بـ (فى) فقال : (ما أذنى بصغواء فى حق)، وفـى أمـر الباطـل بـ(عند) فقال : (ولا عند باطل) وفى ذلك إشارة إلى أن أبا طالـب إن ظفر بالحق وعلمه تمكن منه تمكناً لا ينفك عنه ولا يحيد، وهـذا مقتضى التعبير بحرف الظرفية (فى) أما فى أمر الباطل فهو عنه بعيد وعن ساحته شريد ، ومن ثَّمَّ عبر بالعندية فقال: (ولا عند باطـل) لأنها مجاز عن المكان الموجود فيه الباطل، وفى ذلك دلالة على بُعده عن كلِ ما هوباطل أوفاسد ، وفى تنكير" حق" و" باطل " دلالة علـى العموم والشمول ؛ ليؤذن بأنه لا يقبل عذل العاذل فى أى حق كان ، ولا فى أى باطل هوبعيد عنه، ويُرادُ له وُلوجُه والانتظام فى سلكه.

قوله:

خليلـيَّ إنَّ الأمـرَ لـيسَ بشِـركَةٍ ∴ ولا نَهْنَـهٍ عنـدَ الأمـورِ البَلابـلِ

النَّهْنَهَة: يقال: نَهْنَهَهُ عن الشـىء: زَجَـرَهُ [1]، والنَّهْنَهَـةُ : الكَفُّ، تقول : نَهْنَهْتُ فلاناً إذا زجرتُه فتَنَهْنَه[2] ، والبَلابِـلُ : جمـع

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده٤/١٠٦ ، تح / عبـد الحميـد هنداوى – دار الكتب العلمية – بيروت٢٠٠٠م .
(٢) اللسان١٣/٥٥٠

بَلْبَلَة: وهى وَسْواس الهموم فى الصدر ، وهو البَلْبال ، والجمع : البَلابِل[١] .

وأول ما يطالعك فى قول أبى طالب هنا أنه أعاد المنادى المحذوف حرف ندائه دون تغير فقال: (خليلىَّ) ولعلَّ مُراده من ذلك هو إيقاظ المشاعر ممن يتلقى شعره ، وتنبيهه إلى فضل عنايته بالمعنى الذى يأتى بعد هذا النداء [٢] ليقف على ما استقر فى وجدانه من عدم الإصغاء لعذل العاذل فيما يقوم به تجاه ابن أخيه - ﷺ - من الدفاع عنه والنصرة له.

وإذا كان العذل هواللوم على أمر يراه المتكلم خطأً - فى الغالب - ومن ثَمَّ يتبع بالرد عليه ، فإن أبا طالب رد على هؤلاء العواذل الذين يلومونه فى نصرته ابن أخيه بقوله : (إن الأمر ليس بِشِرْكة ... إلخ) أى إنه يعتقد أن الإنسان الواحد - فى مثل الأمر الذى هو فيه - ربما يكون له رأى صحيح من غير مشاركة أحد له فيه.

وإذا حصل ذلك وكان رأى المرء هوالصواب فلا يرده عن ذلك الأمر الزجر والكف عما هو عليه ، خاصة عند الأمور التى تهيج الصدر بثقلها عليه، وقد أكد هذا الشأن بأم أدوات التأكيد (إن) للدلالة على صدق ما اعتقده ويقين ما صار إليه ، وأنه لا رجعة عما

---

(١) العين للخليل ابن أحمد٨/٣٢٠ ، تح د/ مهدى المحزومى - د/إبراهيم السامرائى - دار ومكتبة الهلال.

(٢) ينظر: الشعر الجاهلى دراسة فى منازع الشعراء ، ص٤٦ ، د/محمد محمد أبوموسى - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

هوعليه من النصرة والتأييد لابن أخيه - ﷺ - حتـــى وإن عـــاداه الجميع ، وتلك المعاداة هى التي بينها فيما يلى من أبيات على النحو الآتى:

ثانيا: المعــاداة والصبر عليها

وفى ذلك يقول أبو طالب :

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ عِندهم ∴ وقد قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائلِ
وقد صَارحُونَا بالعَداوةِ والأذَى ∴ وقد طَاوَعُوا أمرَ العَدوالمزَايلِ
وقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً ∴ يَعُضُّونَ غيظاً خلفَنَا بالأناملِ
صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سَمْحةٍ ∴ وأبيضَ عَضْبٍ من تُراثِ المقَاولِ
وأحضرتُ عندَ البيتِ رَهطى وإخوتى ∴ وأمسكتُ من أثوابِه بالوَصَائلِ
قياماً معاً مُستقبلينَ رِتَاجَه ∴ لدى حيثُ يَقضى حِلفَه كُلُّ نَافلِ

العُرَى: جمع عُروة بالضم وهى ما يوثق به ويعول عليه كالحبل ونحوه ، والوسائل :جمع وسيلة وهى ما يتقرب به، وصارحونا: كاشفونا بالعداوة صريحاً ، والمُزايل: المفارق، وحالفوا: عاهدوا من المحالفة وهى المعاهدة على أن يكون الأمر واحداً فى النصره والدفاع ، وأظنة: جمع ظنين وهو الرجل المتهم ، والظِنَّة بالكسر التهمة ، والسمراء: القناة، والسمحة: اللينة التى تسمح بالهزِّ والانعطاف ، والأبيض: السيف ، والعضب :القاطع ، المقاول : جمع مِقول بكسر الميم وهو الملك [١].

الواو التى ابتدأ بها أبو طالب هذه الأبيات فى قوله: (ولما رأيتُ ...) هى (واو) الاستئناف حيث استأنف بها أمراً جديداً لا يعطف على ما قبله – عطفَ مفردات ولكنها تعطف مجموع ما يليها على مجموع ما سبقها – ، و(لما) هنا شرطية مستعملة فى الزمن الماضى ، وتدل على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها ، ولذلك

---

(١) ينظر: خزانة الأدب ٢/٥٤ : ٥٥ .

يكثر أن يكون شرطها علة فى جوابها ، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ (١) [الأعراف ٢٢] .

وفعل الشرط هنا قوله: (رأيتُ) وهذه الكلمة يؤتى بها لتأكيد رؤية مشهد يحرص البيان على تأكيده (٢) ومِنْ ثَمَّ لما كان أبو طالب حريصاً على أن يؤكد إدراك ما عايشه من قريش من العداوة والبغضاء عبر بالرؤية دون النظر ، لأن النظر هو الإقبال بالبصر نحوالمرئى وقد ينظر ولا يراه (٣) وهذا من دقيق اللغة وحسن امتلاك ناصيتها .

و(أل) فى (القوم) للعهد، والمراد بهم قريش ، وإنما آثر أبو طالب التعبير بالقوم دون الناس مثلا ؛ لأنه لا يريد عامة الناس ودهماءها ، وإنما يريد جماعة مخصوصة هى قريش وبطونها ، وعبر عنهم بـ(القوم) لأن لفظ القوم فيه دلالة على أنهم اجتمعوا على قومية واحدة وتشاركوا فى المقاصد والأهداف والآمال والآلام،بحيث صار كل واحد منهم يقوم مقام الآخر فيما يود فعله وينوب عنه فيه(٤)

---

(١) ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ٥٩٣ وما بعدها ، تح/ فخر الدين قباوة – محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

(٢) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٥٤٤ ، مؤسسة النشر الإسلامية – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

(٣) ينظر: الفروق اللغوية ٥٤٤ .

(٤) ينظر: المعجم الوسيط ٧٦٨/٢ ، تأليف:أحمدالزيات ، تح/مجمع اللغة العربية – دار الدعوة.

وانظر إلى دقة أبى طالب فى تعبيراته حيث لم يقل : (ولما رأيت قومى) أى لم يصرح بإضافتهم إلى نفسه، لأنه لما رأى منهم ذلك الجفاء وهاتيك الشحناء آثر أن يكون نسيجاً وحده، لا يختلط بما يشينه فيما نهض من أجله ، أويعيبه فيما جند نفسه فى الدفاع عن شأنه .

ولعل عدم الإضافة (قومى) ترجع إلى أنه رأى أن القوم عادوه هو وعشيرته وحاصروهم فى الشعب ، وامتنعوا عن البيع والشراء والمحادثة معهم ، فلا سبيل إذن إلى أن يكون منهم والحالة على ما يرى...

قوله (لا وُدَّ عندهم) نفى لجنس المودة والمحبة ، ولكنه نفى ليس على إطلاقه ، وإنما نفى لأن يكون له هو ومَن معه عند هؤلاء القوم شىء من جنس المودة والمحبة ؛ التى ربما تعود عليه بما يهون عليه ما هوفيه ، ومِنْ ثَّم بدأ فى بيان حال هذا الجفاء وذلك العناء الذى أصابه منهم فقال : (وقد قطعوا كل العرى والوسائل) .

والواوالتى فى صدر هذه الجملة هى واو الحال ، وكأن المعنى : رأيت القوم لا وُدَّ عندهم حال كونهم قاطعين كل العرى والوسائل ، ولا يخفى ما لواوالحال من شأن فى الكلام ، وذلك لأنها تومىء إلى أن هذا الخبر الملحق الذى هوالحال يوشك أن يكون خبراً وحده غير ملحق بالخبر الأول ، الذى أصله قولهم (لا ودّ عندهم) وهذا من دقيق صياغة البيان ، وجهله جهل بالمعنى[١] .

---

(١) ينظر: الشعر الجاهلى ٥٠ .

ومعنى (وقد قطعوا كل العرى والوسائل) أنهم نبذوا كل عهد وميثاق – من شأنه أن يقرب بين أبناء العمومة – وراءَ ظهورهم ، وتنكروا لكل صلة أوقرابة كانت بينهم وبين بنى هاشم ،

وقد صاغ أبو طالب هذا المعنى فى صورة مؤكدة عن طريق إدخال حرف التحقيق (قد) فى صدر الجملة ، والتعبير بالماضى (قطعوا) الدال على تحقق وقوع القطيعة ، ثم التعبير بـ(كل) الدالة على استغراق جميع العهود والوسائل التى من الممكن أن تحول بين وقوع هذه القطيعة وهاتيك الفعلة الشنيعة .

ولا يخفى أن أبا طالب صاغ هذا المعنى عن طريق الاستعارة التصريحية ، حيث شبه العهود والمواثيق التى كانت بينهم بالعرى التى يوثق بها الأحمال والبضائع ثم حذف المشبه ، واستعار مكانه لفظ المشبه به ليقوم مقامه ، بادعاء أن المشبه به هوعين المشبه، وهذا أبعد مدى فى البلاغة وأدخل فى المبالغة(١)

قوله:

وقد صَارحُونَا بالعداوةِ والأذَى ∴ وقد طَاوَعُوا أمرَ العَدوِّ المزَايلِ

خبرٌ آخر عن قريش وأفعالها المشينة مع بنى هاشم يزيد المعنى السابق ظهوراً وبياناً ؛ لأنهم إذا كانوا قد قطعوا كل العهود والمواثيق التى أبرمت فيما بينهم ، فلا سبيل إلى إخفاء أمر عداوتهم لبنى هاشم ، ولا رادع يردعهم عن إلحاق الأذى بهم ، ومن ثم كانت

---

(١) ينظر: البلاغة الواضحة ٧٦ .

المصارحة وهى المجاهرة والمكاشفة بكل ما كان فعله فى السابق على استحياء أوتردد .

وقد أضافوا إلى هذه المصارحة أمراً آخر بينه بقوله:

وقد طاوعوا أمر العدوّ المزايل

وفى التعبير بـ(طاعوا) دلالة على كامل الموافقة واللين والانقياد لكل ما يأمر به هذا المزايل أى: المفارق ، والمزايل هنا صفة للعدو المقصود منها المبالغة والإيغال[١] فى بيان أمر عدواته ، لأن العدو بطبيعته مفارق ومباين لعدوه ، فإذا ما وصف بالمزايل فقد بولغ فى بيان كراهته ؛ وذلك لأن المزايل مأخوذ من : زِلتُ الشىءَ عن مكانه إذا نحيتُه وأبعدتُه ، وزَيَّلَهُ فَتَزيّل أى فرّقه فتفرق ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس ٢٨] أى فرَّقنا ، والمُزايلةُ المفارقة [٢] وعلى ذلك فالعدوُّ المُزايلُ هومَنْ يمحو أىَّ أثر لمودة أو محبة ، ولا يُبقى على شىء منها ،وهذا أبلغ فى وصف بغضه وكرهه ، أما المفارق فهو من يتركك ، سواء حصل لك منه أذى أولا.

---

(١) ينظر :المثل السائر لابن الأثير٢/٣٣٣ ، تح/محمد محى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت١٩٩٥م ، وإعجاز القرآن للباقلانى ٩٢ ، تح/ السيد أحمد صقر – دار المعارف – القاهرة ، ومختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى ١٦٨ – دار الفكر – الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

(٢) ينظر: اللسان١١/٣١٦

ولما ذكر أبو طالب مكاشفة القوم لهم بالعداوة ومطاوعتهم أمر العدو فى إلحاق صنوف المكروه بهم ، ذكر هنا محالفة قريش لغيرهم فى سبيل التقَوِّى على بنى هاشم .

فقال

وقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً ∴ يَعُضُّونَ غيظاً خلفَنَا بالأنامِلِ

وهذا يبين إلى أى مدى وصل هؤلاء القوم فى تضييقهم على أبناء عمومتهم ، ومحاولة تأليب غيرهم عليهم عن طريق التحالف والتعاهد على الوقوف ضد بنى هاشم وإثنائهم عن نصرة ابن أخيهم.

وقوله : (حالفوا) أى عاهدوا. من المحالفة وهى المعاهدة على أن يكون الأمر واحداً فى النصرة والحماية[١] وفى التعبير بالماضى دلالة على تحقق وقوع مثل هذا التحالف من القوم ، والسعى فى إمضائه ونفاذه ، ولعل فى اختيار (حالفوا) دون (عاهدوا) - وإنْ كان على الوزن نفسه - أن التحالف تفوح منه رائحة الحَلِف واليمين والقَسَم ، وكأن كُلاً من الطرفين يحلف للآخر على أنه ناصره وحاميه.

أما العهد ففيه شىء من الوصية والشرط [٢]وبذا يكون أقل درجةَ فى باب المواثيق من الحِلْف ، ومن ثم سمى الحِلْفُ الذى عقدته قريش بينها على نصرة كل مظلوم بمكة (حِلْفَ الفضول) [٣]

---

(١) ينظر : خزانة الأدب ٢/٥٤ .
(٢) ينظر : لسان العرب ٣/٣١١
(٣) ينظر :السيرة الحلبية١/٢١١ - دار المعرفة - بيروت١٤٠٠ هـ

وليس بعهد الفضول ، والذين تحالفت معهم قريش هم بنـــوبكر بـــن عبد مناف بن كنانة ، وكانت بينهم وبين قريش عداوة قديمة [١] .

وفى تنكير (قوماً) دلالة على حقارتهم وقلة شأنهم بين العرب ، ومن ثم أكد أبوطالب هذا الأمر بقوله (أظنة) وهى جمع ظنـــين، ورجلٌ ظَنِينُ : متهمٌ من قوم أَظِنَّاء بَيِّنِى الظِنَّة وقيل : الظنين : القليلُ الخير ، وقيل : كلُ شىء لا يوثق به [٢] .

وفى إطلاق كلمة (أظنة) دون تحديد نوع هذا الظن أو الاتهـــام دليل على العموم والشمول لكل ما يشين هؤلاء ويعيبهم فى حياتهم .

وفى قوله: (وقد حالفوا قوماً علينا أظنة) زيادة توبيخ لقريش حيث حالفوا عليهم قوماً سفلة بعد قطع أرحامهم ومعاداتهم[٣] .

وقوله: (يعضون غيظاً خَلْفنا بالأناملِ)

كناية عن شدة التحسر والغيظ التى ألمت بالقوم ، ومـــا يتبـــع ذلك من حالة احتقان الوجه ، وتغير لونه فى كيفية يتخيلها المتلقى ، كل ذلك بسبب ظهور نبى آخر الزمان فى بنى هاشم دون غيـــرهم ، وهوتعبير مستوحى من القرآن الكريم ، حيث يقول ســـبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِـــنَ الْغَـــيْظِ ﴾ [آل عمران ١١٩] .

---

(١) ينظر:غاية المطالب ص١٠١
(٢) ينظر : اللسان ٢٧٢/١٣
(٣) ينظر: غاية المطالب ص١٠١

ومما يلاحظ فى مبانى الجمل السابقة أنها جاءت علــى حــذو واحد حيث قال أبوطالب :

وقد قطعوا ...... وقد صارحونا .... وقد طاعوا .... وقــد حالفوا......... وكلها مؤكدة بـــ(قد) والفعل الماضى الــدال علـــى تحقق وقوع هذه الأحداث ، ومثل هذا التشابه فى البنـــاء اللغــوى ، والتشابه فى الجرس الصوتى يؤكد أنها كلها من باب واحد ألا وهـــو باب نفى الودِّ الذى تصدرت به هذه الأبيات وذلك فى قولـــه: ولمـــا رأيتُ القوم لا وُدَّ عندهم .

أما فى تلك الكناية السابقة فقد خالف فيها هذا النسق فى بناء الجملة حيث صدرها بصيغة المضارع فقال :(يعضون غيظاً خلفنـــا بالأنامل) " وصيغ المضارع فى ألسنة أصحاب البيـــان فيهـــا ثـــراء وعمق وقدرة بارعة على إحضـــار المشـــاهد والمواقـــف ، وكلمـــة استحضار الصورة التى تتردد فى كلام البلاغيين كلمه سخية جداً "[(١)] حيث - إنها هنا - تنقل لك الحدث فى صـــورة مفعمـــة بالحركـــة والاضطراب النفسى لدى هؤلاء القوم ، وما ينتج عنه مـــن انفعـــال يقود إلى شفاء النفس من ويلات التحسر والحقد التى ألمـــت بهـــا ، قوله :

صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سَمْحةٍ ∴ وأبيـضَ عَضْبٍ من تُراثِ المَقَاوِلِ

كلمه (صبرتُ) هنا واقعة فى جواب (لما) التى تصدرت أبيـــات المعاداة حيث قال: (ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ عندهم) ، وهذا يعنى أنَّ

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى ، د/ محمد محمد أبو موسى ، ص١٤٧ - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٢١هـــ/٢٠٠١م .

البيت السادس من تمام معنى البيت الثالث ، وأن الشاعر جعل هــذه الرابطة الإعرابية – وهى جواب الشرط – دليل على هذه التتمة.

وأصل الصبر : الحَبْس ، وكل من حبس شيئاً فقد صَــبَرَهُ [١] واللام فى قوله: (صبرت لهم) للتعليل ، وكأنه يقول : إنمـــا حبســت نفسى عن أذاهم أوقتالهم لأجل أنهم فى نهاية الأمر أبناء عمومـــة ، وإنْ بَدَر منهم هذا الجفاء وتلك الشحناء ، ولكن صبره هذا لم يكـــن عن ضعف أوعدم قدرة على المواجهة أوالعلم بفنون القتـــال ؛ لأنـــه يمتلك من أدوات القتال ما لا يكون إلا مع الأبطال، وفى ذلك يقول:

صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سَمحةٍ ⁂ وأبيضَ عَضْبٍ من تُراثِ المَقَاوِلِ

والباء فى قوله(بسمراء) هى باء الاستعانة ، أى مستعيناً على ذلك بـــ(سمراء سمحة) والسمراء السمحة كناية عن موصوف ، ألا وهو القناة أوالرمح ، ووَسَمَها بالسمحة ؛لأنها تلين فى يد حاملهـــا لتسمح له بالهز والانعطاف، فتكون أقرب إلى إصابة الغرض المؤم، وقوله: (وأبيض) كناية ثانية عن موصـــوف آخـــر هوالســـيف ، والتعبير عنه بالأبيض لكون السيوف البيضاء من الســـيوف الحـــادة القاطعة الكريمة على أصحابها ، ومن ثم قال عنترة :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَوَاهِلٌ ⁂ مِنّى وبِيضُ الهندِ تقطرُ من دَمِى
فـوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها ⁂ لَمَعتْ كبارقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ[٢]

ثم وسم هذا الأبيض بأنه (عضب) ، والعضـــب: هوالقـــاطع البتار ، وفى ذلك إيغال فى بيان أنه سيف جاد قاطع كلَّ مـــا يكـــون

---

(١) لسان العرب ٤٣٧/٤

(٢) ديوان عنترة بن شداد ص٨٤ .

تحت نصله ، ووَسَمَ السيف القاطع بالمصدر فقال : (عَضْـب) دون عاضب ، للدلالة على تمكنه فى أمر القطع ، ومبالغة فى بيان أنه لا يمرُّ على شىء إلا أحدث به قطعاً أو كسراً .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب كان من الممكن له الاكتفاء بذكر الموصوفين دون وصفيهما، فكان له أن يقول :(سمراء وأبيض) دون سمحة وعضب – مع قدرته على نظم البيت عروضياً إن شاء – ولكنْ ذِكْرُ هاتين الصفتين أفاد التنويه بهما وتعظيم شأنهما ، والنص على أنهما العدة الأصلية لكل محارب ، وأن المحارب من دونهما أقرب إلى الانتحار منه إلى الانتصار ، وسبق أن قيل : إن المقاول جمع مِقْول وهو الملك ، وأراد بالمقاول فى قوله: (من تراث المقاول) أباءه ، فقد شبههم بالملوك ولم يكونوا ملوكاً ، ولا كان فيهم من ملك، بدليل حديث أبى سفيان حين قال له هرقل: فهل كان من آبائه من ملك ؛ فقال لا [١] ، ويحتمل أن يكون هذا السيف الذى ذكره أبوطالب من هبات الملوك لأبيه عبد المطلب ، فقد وهب ابنُ ذِى يَزَن لعبد المطلب هبات جزلة حين وفد عليه مع قريش يهنئونه بظفره بالحبشة ، وذلك بعد مولد الرسول ﷺ بعامين"[٢] .

ولما بَيَّنَ حَبْسَ نفسه عن أذاهم وصبره على ذلك مع قدرته على المواجهة وإشعال نار الحرب ، بين هنا لجوءه إلى البيت واعتصامه بحَرمه فقال:

---

(١) ينظر : صحيح البخارى١/٧ ، تح د/مصطفى ديب البغا – دار اليمامة – بيروت – ط الثالثة١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
(٢) الروض الأنف للسهيلى ٢٣/٣ .

وأحضرتُ عندَ البيتِ رَهْطى وإخْوتى ∴ وأمسكتُ مِن أثوابِه بالوَصائلِ
قياماً معاً مُستقبلينَ رِتَاجَه ∴ لدى حيثُ يَقْضى حِلْفَه كُلُّ نَافلِ

والواو التى ابتدأ بها أبو طالب هذين البيتين عاطفة لحدث على حدث ، حيث عطفت قوله: (وأحضرت) على قوله: (صبرتُ) وكلمة الإحضار التى اصطفاها أبوطالب فى هذا الشأن - مع مجىء الفعل فى صوره الماضى - تدل على الوجود الفعلى فى ساحة الحرم الشريف مع مشاهدته ، لأن الحضور نقيض الغيبة ، يقال: كان ذلك بحضرة فلان أى بمشهد منه[(١)] والمراد بالبيت فى قوله: (عند البيت) الكعبة المشرفة والبيت اسم غلب عليها كالنجم على الثريا[(٢)].

وقوله : (رهطى وإخوتى) من عطف الخاص على العام ؛ لان رهط الرجل قومه وقبيلته[(٣)] وإخوته جزء من قبيلته التى أحضرها عند البيت، وإنما خصهم بالذكر اهتماماً بشأنهم وتنبيهاً على أنه ليس وحده فى ميدان الدفاع عن رسول الله ﷺ وإنما هو وإخوته وعصبته الأقربون فداء له - ﷺ - وفداه أبى وأمى- عليه الصلاة والسلام - .

ومما ينبغى التنبيه إليه هنا أن أبا طالب لم يقل : وأحضرت عند البيت قومى وإخوتى ، وإنما قال : (رهطى وإخوتى) لأن كلمة (قومى) كلمة عامة تشمل مَنْ يوافقه فيما ذهب إليه من نصرة ابن أخيه، وتشمل مَنْ يُخالفه فى ذلك ، ومِنَّ ثم آثر التعبير بـ(رهطى)

---

(١) اللسان ٤/١٩٦
(٢) ينظر: غاية المطالب ٢ - ١
(٣) مختار الصحاح ٢٦٧ ، تح/محمود خاطر - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

دون قومى ليدل على أن إحضاره كان لخاصته والأقربين منه، وليس لجميع قومه ٠

ثم هناك أمر آخر يلاحظ فى كلام أبى طالب ألا وهو: إسناده الإحضار إلى نفسه حيث قال: (وأحضرت) ولم يقل : وحضرنا عند البيت ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ وفى ذلك دلالة على أنه القائد الذى لا ترد له كلمة ، ولا يتخلف عن طاعته وتلبية أمره أحد من عشيرته وأخواته ، وفى هذا الإسناد الخبرى من الدلالة على كمال انقيادهم له وطواعيتهم لما يريد ما لا يخفى ، ولو قال : (وحضرنا عند البيت) لكان فى ذلك إهدار لهذا المعنى المتناسل من إسناد الفعل إلى ضمير الفاعل لا إلى ضمير الفاعلين.

وإسناد الإمساك إليه فى قوله : (وأمسكت من أثوابه بالوصائل) دليل آخر على أن أبا طالب هو المتصرف فى شئون رهطه وإخوته ، والقائم فيهم بتحمل مدلهمات الأمور والخطوب، حيث اعتصم وتعلق بأثواب الكعبة مستجيراً بربها من قطيعة أهلها ، و(من) فى قوله: (من أثوابه) تبعيضية ؛ لأنه لم يقبض بيده على كل أثواب البيت ، وإنما تعلق ببعضها ، وهذا البعض بينه بقوله : (بالوصائل) ؛ والوصائل " أثواب يمانية حُمرٌ فيها خطوط خُضر واحدها وصِيْلة ، كانوا يتمسكون بها ويدعون عند النوائب" [١] واشتداد المصائب ، والباء فيها للإلصاق أى أمسكت الوصائل ملتصقا بها، وفى ذلك دليل على شدة كربه وفجاعة حاله وأمره٠

---

(١) غاية المطالب١٠٢

و(قياماً) فى قوله : (قياماً معاً مستقبلين رتاجه٠٠٠٠٠٠ الخ) حال من قوله : (وأحضرت ٠٠٠ وأمسكت) أى أحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ٠٠٠ حال كوننا قياماً ، وهومصدر يدل على الثبوت والدوام على طريقه المبالغة فى أمر تعلقهم بأثواب البيت مده طويلة دون أن يستريحوا٠

ولعلك إذا نظرت إلى قوله : (معاً) بعد قوله: (قياماً) ترى أن (قياماً) دال عليها – أى معاً – بلا شك ، ولكن لما أراد أبو طالب أن يؤكد تِلْكُم الصحبة وذالكم الاقتران فى التعلق بأثواب الكعبة ، وأنه لم يكن وحده يدعو ويستجير ، وإنما هو ورهطه وإخوته ومَنْ وراءهم ، كان التعبير بقوله :(معاً) دالاً على ذلك ٠

وقوله:(مستقبلين) حال أخرى لهؤلاء القوم تدل على موقفهم من بيت الله الحرام، حيث استقبلوا بابه العظيم داعين على أهل الجور والظلم والقطيعة

وفى قوله :(لدى حيث يقضى٠٠٠) ترى الدقة فى اصطفاء لبنات الكلام ومفردات التراكيب، حيث اصطفى كلمة (لدى) الدالة على الظرفية المكانية هنا دون (عند) ، وإن غلب استعمالهما بمعنى واحد ، إلا أن فى (لدى) معنى القرب والحضور أكثر من (عند) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ [يوسف ٢٥] ، أى قريب حاضر من الباب [١] ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق ٢٣] ، يعنى : ما كتب من عمل العبد

---

(١) ينظر: تفسير الطبرى١٦/٥١ ، تح/أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

حاضر لدى الملك وفى الصحيفة التى معه[١] ومثله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ [غافر ١٨] .

ومن هنا آثر أبو طالب (لدى) على (عند) فى هذا المقام ؛ ليدل على شدة قربه وحضوره فى المكان الذى يقضى فيه المتطوع عبادته ونسكه ، ويُوفِّى فيه عهده ونذره للبيت الحرام، وفى تقديم المفعول به على الفاعل (يقضى حِلْفَه كلُّ نافلٍ) للاهتمام[٢] بأمر العبادة والنذر الذى جاء من أجله هذا المتطوع ؛ لأنه لا يفد إلى البيت إلا وهو يريد أمر العبادة أو الدعاء ، أو ما يتقرب به إلى الله تعالى من صنوف الطاعة وأنواع العبادة .

---

(١) ينظر : تفسير اللباب فى علوم الكتاب لابن عادل١٨/٢٩ ، تح/عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر٢٦٢ ، تح/محمد التنجى – دار الكتاب العربى – بيروت – ط الأولى١٩٩٥م ، والمثل السائر لابن الأثير٢/٩٨ .

ثالثاً : الاستعاذة بالله ومقدسات العرب

ولما أحضر أبو طالب رهطه وإخوته عند البيت ووقفوا مستقبلين بابه العظيم ، وتعلق بأثوابه مستجيراً بالله من قطيعة قريش وظلمها ، بين هنا ما استعاذ به وما استعاذ منه فقال :

أعوذُ بربِّ الناسِ من كلِّ طاعنٍ ∴ علينا بسُوءٍ أومُلِحٍّ بباطِلِ
ومِنْ كاشحٍ يَسْعى لنا بمَعيبَةٍ ∴ ومِنْ مُلحِقٍ فى الدينِ مالَمْ نُحاوِلِ
وثَورٍ ومَنْ أرسى ثَبِيراً مكانه ∴ وراقٍ لِبِرٍّ فى حراءٍ ونازِلِ
وبالبيتِ حَقِّ البيتِ مِنْ بَطْنِ مكةٍ ∴ وبالله إنَّ اللهَ ليسَ بغافلِ
وبالحجرِ الأسودِ إذْ يَمْسحُونَه ∴ إذا اكْتَنفوه بالضُّحى والأصَائلِ
وموطِىء إبراهيمَ فى الصخرِ رطبةً ∴ على قَدَميه حافياً غيرَ ناعلِ
وأشواطِ بينَ المروتينِ إلى الصَّفا ∴ وما فيهما مِنْ صُورةٍ وتَمَاثِلِ
ومَنْ حجَّ بيتَ اللهِ مِنْ كلِّ راكبٍ ∴ ومِنْ كُلِّ ذى نَذْرٍ ومِنْ كُلِّ رَاجِلِ
فهلْ بعدَ هذا مِنْ مُعاذٍ لعائذٍ ∴ وهلْ مِنْ معيذٍ يَتقى اللهَ عادِلِ

قوله :

أعوذُ بربِّ الناسِ من كلِّ طاعنٍ ∴ علينا بسُوءٍ أو مُلِحٍّ بباطِلِ

(أعوذ) أى : استجير واعتصم، مِنْ عَاذَ يَعُوذ[1] واستهلال تلك الاستعاذة بالفعل المضارع (أعوذ) دون (وعذتُ) لأنه يريد أن يحضر للسامع مشهد استعاذته بالله من ظلم هؤلاء وجَوْرهم ، حتى لكأنك تشاهده وهو متعلق بأستار الكعبة يدعو ويستجير .

ولعل فى استخدام الفعل المضارع (أعوذ) أمراً آخر فوق استحضار الصورة ألا وهو تجدد هذا الأمر منه ، وتكراره فى كلِّ

---

(١) ينظر :اللسان ٣/ ٤٩٨

مُلِمَّةٍ تنوبه أو كرب يعتريه ؛ ليعلمك أنه لا سبيل له من الخلاص من هاتيك المُلمات وتلك النائبات إلا باللجوء إلى الله جل فى علاه.

ومعلوم أن المستعاذ به هنا هو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه القادر على دفع تلك الكروب وإقصاء تلك الملمات ، ولكن لما كانت صفة الربوبية أقرب إلى الإعانة والرعاية والرحمة الواسعة التى تخلصه مما هو فيه . جعل أبو طالب أمر الاستعاذة متعلقاً بالربوبية فقال : (أعوذ برب الناس) ، أى: أعتصم به وأسأله أن يكون عاصماً لى من عدوى الذى يريد بى وبأهلى السوء، وإنما قال أبوطالب: (أعوذ برب الناس) دون (أعوذ برب القوم) ، الذين قال عنهم سابقا: (ولما رأيت القوم لا ود عندهم) ، لأن صفة الربوبية تعم الجميع سواء من كانت منهم عداوة أم من لم تكن ، ومن ثَّم استعاذ بربِّ مَنْ يملك أمور الكل دون فصيل عن فصيل.

والجار والمجرور فى قوله : (من كل طاعن) متعلق بـ(أعوذ) و(من) هنا لابتداء الغاية و(كل) فى قوله : (كل طاعن) للدلالة على العموم والشمول فى الاستعاذة من كل طاعن ، أى : عائب بسوء أوملح بباطل ، والمُلِحُّ اسم فاعل من "ألح على الشىء إذا أقبل عليه لا يَفْتُر عنه "[1] ، وكأنه بذلك يستعيذ برب الناس من العائب ، ومن المُصِرِّ على إلحاق العيب بهم زوراً وبهتاناً.

ولعلك تدرك أن قوله: (أعوذ برب الناس) مستمد من النبع القرآنى الوارد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس

---

(١) اللسان ٢/٥٧٧

١]، وما ذاك إلا لأن أبا طالب كان قريباً جداً من رسول الله ﷺ وكان يسمع ما ينزل عليه من الوحى والذكر الحكيم ، وذلك دليل على أنه كان شديد القرب مما جاء به رسول الله ومما بَلَّغ به عن ربه .

وفى قوله : (برب الناس) تصريح بأنه كان يؤمن بالله ، كما كان عليه أكثر العرب فى الجاهلية ، وإنما كان شركهم بعبادة الأصنام، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف١٠٦] ، وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان٢٥] .

قوله :

ومِنْ كاشحٍ يَسْعى لنا بمَعيبَةٍ ∴ ومِنْ مُلحِقٍ فى الدينِ مَالَمْ نُحَاوِلِ

عطف على أمر الاستعاذة ، أى أعوذ برب الناس من كاشح ، والكاشح هوالذى يطوى على العداوة كشحه أى خصره ، يقال : طويتُ كشحى على الأمر : إذا أضمرتُه وسترتُه[١]

وقال: (يسعى لنا) دون (يمشى لنا) ؛ للدلالة على أن هذا الكاشح المضمر أمر العداوة يتحرك بسرعة وجد ونشاط فى إلحاق أمر المعيبة بهم ، لا يتوانى فى ذلك ولا يتأخر ، ولا يصيبه كسل أو فتور ، وذلك لأن السعى : هو(المشى السريع وهو دون العدو[٢]) أما المشى فهو حركة على مقتضى الطبيعة ، قال تعالى : ﴿ فَامْشُوا

---

(١) مقايس اللغة ، لأحمد بن فارس ١٨٣/٥ ، تح/ عبد السلام هارون – دار الفكر – ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٢) المفردات للراغب الأصفهانى ٢٣٣ ، تح/ محمد سيد كيلانى – دار المعرفة – لبنان .

فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك١٥] ، ومثله : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان٧] ٠

وفى التعبير بالمضارع (يسعى) دلالة على التجدد والحدوث ، ولك أن تضم إلى ذلك استحضار الصورة ونقل الحدث أمام السامع ، وكأنه يرى بعينيه ذلك الكاشح المبغض وهو يتحرك يَمْنَةً ويَسْرة سعياً فى إلحاق العيب والنقص بهم ، وحاشاهم من ذلك وهم أهل رسول الله -ﷺ- الذين اصطفاهم الله على من سواهم من قريش وبطونها ٠

وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله : (يسعى لنا) دون : (يسعى بمعيبة لنا) دلالة على الاختصاص ، وكأن هذا الكاشح اختصهم بتلك المعيبة دون غيرهم ، وعمد إلى إلصاقها بهم دون سواهم ، وهذا -كما هو بين - أخطر الأنواع الأربعة التى ذكرها أبو طالب ، لأنه غير معلوم عداوته ؛ حيث يطوى عليها كشحه دون أن يجاهر بها ، أو يدفع بها فى وجوههم٠

و(الباء) فى قوله: (بمعيبة) هى باء المصاحبة التى تدل على الاقتران والتلازم بين الكاشح وتلك المعيبة ٠

ولعل بمراجعة النظر مرة أخرى فى هذه (الباء) يتبين فيها أمر آخر يدعم تلك المصاحبة ، وهو أن هذا الكاشح وهو يسعى فى أمر عداوته كأنه يحمل تلك العداوة بين يديه ويقوم على شأنها واكتمالها حتى يقذف بها فى وجوه القوم ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء٤٠] .

والتنكير فى قوله : (بمعيبة) دال على العموم والشمول فى كل ما من شأنه أن يكون عيباً أونقصاً يُزرى بهؤلاء السادة ، ومِنْ ثَــمَّ فهولا يقف على عيب دون آخر، أو نقيصة دون سواها ، بل يســعى لجمع ما يتاح له زوراً وبهتاناً حتى يكون سبباً فى وقــف ســحائب الخير التى جاء بها رسول الله ﷺ للأمة جمعاء ، قوله:

(ومِنْ مُلحِقٍ فى الدِّينِ مَالمْ نُحَاوِلِ)

هذا هو الصنف الرابع الذى استعاذ منه أبو طالب ، وهو الذى يدرك أمراً معيباً فى شأن غيرهم -غير مرضى عنه- فيلحقه ببنــى هاشم نقيصة لهم٠ والمراد بالدين فى قوله: (فــى الــدين) أى فــى سيرتنا وتاريخنا ، وفسرت المحاولة فى قوله: (ما لم نحاول) بالإرادة ،فقيل :المعنى :ما لم نُرِدْ[1]

ولعل قول أبى طالب : (ما لم نحاول) هــو الأدق والأصــوب ؛ لأن الإرادة بها شىء من العزم والمشيئة على الفعل[2] أما المحاولة فهى طلب الشىء بالحيلة والتكرار[3] ونفيها فى قوله: (ما لم نحاول) نَفْىٌ لأن يكون هناك طلب أو تكرار للطلب فضلاً عن العزم والمشيئة التى فى الإرادة٠

ويلاحظ أن أبا طالب حين استعاذ من هؤلاء الأربعــة ألبســهم ثوب التنكير دون التعريف فقال :من كل طاعنٍ ٠ ٠ أو مُلِــحٍّ ٠ ٠ ٠ ومن كاشح ٠ ٠ ٠ومن مُلحق ، وذلك لأنه أراد التعميم والشمول فى

---

(١) ينظر : غاية المطالب ص١٠٥
(٢) ينظر : اللسان ١٨٧/٣
(٣) ينظر: اللسان : ١٨٤/١١

كل ما من شأنه أن يكون متصفا بإحدى هاتيك الصفات ، فهولا يخص باستعاذته طاعناً بعينه ، أو مُلحاً بشخصه ، أو كاشحاً بذاته ، أو ملحقاً بنفسه ، بل أطلق أمر الاستعاذة ليعم جميع مَنْ يكون له أدنى صفة تُلحقه بهؤلاء.

وبعد أن تعوذ أبو طالب بـ(رب الناس) على وجه العموم ، وذكر من الناس أصنافاً أربعة يُعدون حجر الأساس فى كل عيب أونقص من شأنه أن يلحق بنى هاشم ظلماً وعدواناً . ذكر أسماء بعض الأماكن المقدسة عند العرب عامة وعند قريش خاصة ، حيث كانوا يمارسون عندها شعائر دينية معظمة ، ومن ثم تعوذ أبو طالب بتلك الأماكن من شرور قريش وبغيها فقال :

وَثَـوْرٍ ومَـنْ أرسـى ثَبِيـراً مكانَـهُ ∴ وراقٍ لِبِـرٍّ فـى حـراءٍ ونَـازِلِ

وثورٍ.... بالجر لأنه معطوف على (رب الناس) وما تلاه ، وهو وثبيرُ وحراء جبال بمكة[١]

وقوله : (وراقِ لبِّر فى حراءٍ ونازلِ) فيه دلالة على أنه يستعيذ برسول الله -ﷺ- من شرِّ قريش وغلوائها ، وذلك لأن المقصود بقوله: (وراق)هو رسول الله ﷺ لأنه هو الذى كان يتعبد فى حراء الليالى ذوات العدد، ومعلوم أن الوحى جاءه بأمر النبوة وهو هناك.

والتنكير فى قوله : (وراق) للتعظيم والتشريف ، لأنه لا يستعاذ إلا بالعظيم القدر الرفيع المنزلة ، وليس هناك أعظم ولا أشرف ولا أرفع قدراً من رسول الله - ﷺ- وقوله: (وراقِ لبرٍّ فى حراء

---

(١) ينظر: غاية المطالب ١٠٥ .

ونازل) فيه من صحة التقسيم[١] ما لا يخفى ، حيث إن المتعبد فى غار حراء له حالان لا ينفك عنهما ؛ لأنه إما أن يكون راقياً إليه لأمر البر الذى هو التعبد لله والتفكر في ملكوته والخلوة بعيداً عن دنيا الناس ، أو نازلاً منه قاصداً أمراً آخر ، ولا توسط بين الحالين ، لأنه ليس محلا للمسامرة واللهو والتعرض لأمور الدنيا.

ثم يستمر أبو طالب في الاستعاذة بكل ما هو معظم ، فيستعيذ هنا بأعظم مقدسات العرب وهو البيت الحرام فيقول :

وبالبيتِ حَقِّ البيتِ مِنْ بَطْنِ مكةٍ ∴ وبـاللهِ إنَّ اللهَ ليسَ بغافلِ

فالمراد بالبيت هنا : الكعبة المشرفة ، والبيت اسم غلب عليها. وقوله : (حق البيت) وصف للبيت المقصود به المبالغة في مدحه وفيما وصف به من خصال ومحامد . قال سيبويه : ويقولون هذا العالم حقٌّ العالم يريدون به أنه مستحق للمبالغة في العلم ، بحيث بلغ الغاية في علمه وفضله[٢] .

---

(١) ينظر: نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٤٦ – مطبعة الجوائب – قسطنطينية – الطبعة الأولى ١٣٠٢هـ ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٣٤١ ، تح/ على محمد البجاوى – محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت – ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، والمثل السائر ٢٨٧/٢ ، وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع العداونى ، ص١٧٣ ، تح/ حفنى محمد شرف – صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث .

(٢) ينظر : الكتاب لسيبويه ١٢/٢ ، تح/ عبد السلام هارون – مكتبة هارون – مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

وقوله : (من بطن مكة) أى فى جوفها وداخلها[١] ، ومعلوم أنه قوله :(من بطن مكة) قائم على سبيل الاستعارة ، حيث شبه مكة بالأم التى تحتضن الجنين في بطنها ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو"بطن" على سبيل الاستعارة المكنية[٢] ، والقرينة إثبات البطن لمكة.

وقوله : (وبالله إن الله ليس بغافل) فيه ردٌّ لعجز الأبيات على صدرها حيث قال هناك : (أعوذ برب الناس) ..... وقال هنا : (وبالله ....) وكأنه لما تعوذ بصفة الربوبية التى فيها معنى الرحمة والتلطف والإنعام، كان هدفه منها أن يتلطف به خالقه ويرحمه من شرِّ قريش وبطشها . أما هنا فتعوذ بصفة الألوهية وما تحمله من معنى القهر والغلبة والسطوة ؛ لأن هدفه أن يقهر الله أعداءه فلا يصلون إليه بشىء مما يكره ، وأن تشتد سطوته عليهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله : (إن الله ليس بغافل) جملة تتزيّا بزى التوكيد ، حيث صُدرت بأم أدوات التوكيد وهي (إن) ثم باسمية الجملة (الله ليس ...) ثم بزيادة (الباء) في خبر ليس ، لأن أصل الكلام : إن الله ليس غافلاً ، وما حشد أبو طالب هاتيك المؤكدات في بناء تلك الجملة إلا ليستفز عقول السامعين ويوقظ في نفوسهم جلال الحق سبحانه ورهبته وخشية عقابه ؛ ليعلمهم علماً قاطعاً أن الله مطلع على ما

---

(١) ينظر : غاية المطالب ١٠٦

(٢) ينظر : التصوير البيانى د/محمد محمد أبوموسى٢٩٧-مكتبة وهبة- الطبعة السابعة١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

يدبرون من الظلم والقطيعة ، وبتر الأرحام التي بينهم ، وأنه سيعاقبهم على ذلك عاجلاً أو آجلاً ؛ لأنه غير غافل عما يفعلون .

وقد فصل أبو طالب بين قوله : (إن الله ليس بغافل) وبين سابقتها (وبالله) لما بينهما من شبه كمال الاتصال[١] حيث أثار قوله : (وبالله) سؤالا في نفس المتلقي ، وكأنه قال : ولماذا تستعيذ بالله بعد ما ذكرت من الجبال المعظمة والبيت الحرام ، فكان قوله : (إن الله ليس بغافل) جواباً على هذا السؤال المقدر ، ومن ثم فصل بين الجملتين ، وكأنه يشير بذلك إلى أن الله سيفصل بين الحق والباطل والغث والسمين . وغير خاف أن قوله: (إن الله ليس بغافل) مغترف من النبع القرآني الكريم ،حيث يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم٤٢] وفي ذلك دلالة على ما سبق ذكره من أن أبا طالب كان شديد القرب من ابن أخيه ﷺ ومن كتابه الذى جاء به .

قوله :

وبالحجرِ الأسودِ إذْ يَمْسحُونَه ∴ إذا اكْتَنفوه بالضُّحى والأصَائلِ

والحجر الأسود تابع للمعطوفات التي استعاذ بها أبو طالب ، وهومن عطف الخاص على العام [٢] لأن الحجر الأسود جزء من البيت الحرام ولبنة موضوعة في أحد أركانه ، وإنما خصه بالذكر للدلالة على أهميته ورفعة درجته ومنزلته العظمى من البيت الحرام .

---

(١) ينظر: مختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى١٤٣

(٢) ينظر : العزف على أنوار الذكر د/محمود توفيق محمد سعد ص٤٩ الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .

و(إذْ) ظرف للزمان الماضي[١] ولكنه استعملها للمستقبل في قولــه: (إذ يمسحونه) لدلالة على أن هذا الأمر كائن لا محالة ،فــالحجيج لا تنفك تتمسح بهذا الحجر في سابق الأيام ومستقبلها ، ومِنْ ثَمَّ عبــر بالمضارع الدال على الاستقبال فقال: (إذ يمسحونه) للدلالة على تجدد هذا الأمر واستمراره ما خلع الليل النهــار، ومــا دارت الشــموس والأقمار .

ومعنى (اكتنفوه) أى أحاطوا به ، واستخدام الماضى هنا للدلالة على تحقق هذا الأمر دون شك أو ريب .

والضحى : ما بعد شروق الشمس بقليل ، والأصــائل :جمــع أصيلة وهى ما بعد صلاة العصر إلى الغروب[٢] وفي تخصيص هذين الوقتين دليل على استغراق ما بينهما في انكباب الحجاج والزائــرين على هذا الحجر ليقبلوه ويتمسحوا به .

قوله :

وموطِىء إبراهيمَ فى الصخرِ رطبةً ∴ على قَدَميــه حافيــاً غيــرَ ناعِلِ

وموطىء إبراهيم ، مكان آخر من الأمكنة المقدسة عند العرب أضافه أبو طالب إلى قائمة ما استعاذ به ، (وموطىء إبراهيم) هــو محل أقدام الخليل إبراهيم -عليه السلام - في الصخر عنــدما كــان

---

(١) ينظر: حروف المعاني للزجاجى ٦٣ تح/على توفيــق الحمــد - مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٤م٠

(٢) ينظر: خزانة الأدب ٥٦/٢

يرفع القواعد من البيت[١] وقوله : (وموطىء إبراهيم) فيه من الإيجاز ما لا يخفى ،إذ أصل بناء الكلام : وموطىء أقدام إبراهيم في الصخر ، ولكنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه[٢] لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ، وإنما قال : (وموطىء إبراهيم في الصخر) دون (على) الصخر ؛ لأنه ليس المراد بيان استعلاء إبراهيم على الصخر ، وإنما المراد بيان محل أقدامه في هذا الصخر الصلب الصلد ، الذى لان كما يلين الطين تحت أقدام من يعلوه ، ومِنْ ثَمَّ كانت (في) الدالة على الظرفية ألصق رحما بهذا المعنى لدلالتها على قوة الأثر ووضوحه فى عين الرائى ، بخلاف (على) الدالة على الاستعلاء المجرد دون بيان الأثر .

و(أل) في قوله : (الصخر) للعهد ، إذ المراد بالصخر هنا الحجر الذى اعتمد عليه الخليل حال البناء دون جميع الصخر الذي وطئه بقدمه ، و(رطبة) حال من الصخر ، ومعنى رطوبتها لينها ونعومتها .

ولتوضيح صورة موطىء النبى إبراهيم – عليه السلام– قال : (حافياً) أى إنَّ قدميه مجردان من النعال ، ثم أردف هذا المعنى بلفظ مرادف فقال : (غير ناعل) تأكيداً على بيان الحال التي كانت عليها قدماه –عليه السلام– وأثرهما في الصخر . ومِنْ ثَمَّ أفاد تناوب

---

(١) ينظر :البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ٥٥٨/١ تح/عادل أحمد عبد الموجود وآخرين دار الكتب العلمية –بيروت– ط الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ٠

(٢) ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى٢٩١ – دار الكتب العلمية – بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

المعنى بلفظٍ مرادفٍ كثافةً دلالية في الكلام المقصود للشاعر ؛ وذلك ليستثير أسماع قريش باستعاذته بموطىء الخليل -عليه السلام- ليتعاظم في نفوسهم أمر مقاطعتهم لبنى هاشم فى الحصار المفروض عليهم في شعب أبى طالب مبالغة منه في هذا الأمر ، ومن هنا أفاد تكرار المعنى المرادف -غير ناعل- تقوية في جرس القافية لوقوعه محل القافية من البيت[١] ولما كان التشريك والجمع بين أكثر من مستعاذ به أمراً مُحَلِّقاً في سماء أبيات أبى طالب ، متربعاً على عرش كلامه في تلك اللامية صدر بيته الآتى بالواو فقال :

وأشواطِ بينَ المَـرْوتينِ إلى الصَّـفا ∴ ومـا فيهمـا مِـنْ صُـورةٍ وتَمَاثِـلِ

أى :وأستعيذ كذلك بالسعى ما بين موضعى الجبلين : الصفا والمروة والبينية فى قوله : (بين) بينية مكانية ،وكان من المنتظر أن تكون هذه البَيْنيةُ المكانية بين المروة والصفا ، ولكن أبا طالب فاجأنا فجعل المروة مروتين ، فقال: وأشواط بين المروتين إلى الصفا...

وبالتأمل يتبين أن هذه المفاجأة ليست ضرباً بعيداً في مذهب القوم ، ولكنها ضرب من كلامهم ، وجزء من بناء تراكيبهم حيث إن للعرب مذهباً في أشعارهم في تثنية البقعة الواحدة ، ومن ذلك قول زهير بن أبى سلمى :

---

(١) ينظر: شعر أبى طالب دراسة أدبية د/هناء كشكول- الفصل السابع ص١٨ .

ودارٌ لهـــا بـــالرَّقمتَيْنِ كَأنَّهـــا ⁂ مَرَاجيـعُ وشْـمٍ في نَوَاشِـرِ مِعْصَـمِ[١]

فقال : بالرقمتين ، وإنما هي رقمة واحدة ، والرقمة الروضة، ورقمة الوادى جانبه ، ومنه قول عنترة بن شداد :

كيـفَ المـزارُ وقَـدْ تَرَبَّـع أهلُهـا ⁂ بُعَنيزَتَيْـنِ وَأهلنـا بالغَيْلَـمِ[٢]

فقال : بعنيزتين، وعنيزة اسم موضع، وعليه قول الفرزدق:

عَشِـيَّةَ سَـالَ المِربَـدانِ كِلاهُمـا ⁂ عَجَاجـةَ مَـوْتٍ بالسـيوفِ الصَّوَارِمِ[٣]

وإنما يقصد العرب من هذه التثنية الإشارة إلى جانبى كل بلـد، أوالإشارة إلى أعلى المكان وأسفله[٤] **.**

وهكذا أراد أبو طالب حين قال : (وأشواط بين المروتين) حيث أراد جانبى هذا الجبل ، إشارة إلى سعى الحجيج بينه وبـين الصـفا مرات عدة ، ولا شك أنهم في سعيهم يمرون على هذا الجانب مـرة وذلك أخرى ، وقوله :

(من صورة وتماثل) من عطـف الخـاص علـى العـام ؛ لأن الصورة عامة ،فهى تطلق على الوجه ، وتَرِدُ في كلام العرب علـى معنى حقيقة الشىء وهيئته ، وعلى معنى صفته ، يقال: صورة الفعل كذا ، أى هيئته ، وصورة الأمر كذا أى : صفته[٥] **أمـا التمثـال :**

---

(١) ديوان زهير بن أبى سلمى ، شـرح أ/ علـى حسـن فـاعور ، ص١٠٢ – دار الكتـب العلميـة – بيـروت – ط الأولـى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٢) ديوان عنترة بن شداد ، ص٨٠ .

(٣) ديوان الفرزدق شرح إيليا الحاوى ٥٧٤/٢ – دار الكتاب اللبنانى – الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

(٤) ينظر: الروض الأنف ١٦٣/٢ .

(٥) اللسان٤٧١/٤ .

فهواسم للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله، وجمعه: التماثيل[١] وقد حذفت (الياء) هنا من الجمع تخفيفاً فقيل : (وتماثل) ومن هنا يتبين أن أبا طالب استعاذ بما في جبلى الصفا والمروة من أشكال عامة لمعبوداتهم وأشكال خاصة ، واستعاذته هذه من باب المجاراة لهم ، لأنهم كانوا يعظمون هذه الأصنام ويعبدونها ، وكانوا يطوفون بها كطوافهم بالكعبة[٢]

قوله:

وَمَنْ حجَّ بيتَ اللهِ من كلِّ راكبٍ ∴ ومِنْ كُلِّ ذى نَذْرٍ ومِنْ كُلِّ رَاجِلِ

الواو فيه عاطفة على ما سبق ذكره من الأمور التى استعاذ بها ، ومُرْدِفَةٌ هذا على تلك ، و(مَنْ) في قوله : (ومَنْ حَجَّ) اسم موصول دل به أبو طالب على كل من يتأتى منه الحج ، سواء أكان حراً أم عبداً ، غنياً أم فقيراً ، رجلاً أم امرأة ، وكأنه بذلك يريد جموع الناس على السواء ، فلا فرق عنده بين بعض دون بعض ، ولكن هاتيك الجموع الداخلة تحت عباءة قوله: (مَنْ) قيدها بأن تكون ممن كتب لها الحج حتى تؤتى الاستعاذة ثمرتها ، ومِنْ ثَمَّ قال : (ومن حج بيت الله) والتعبير بالماضى في قوله : (حَجَّ) تفوح منه رائحة الطهارة ، وأريج الصفاء ، وعبير النقاء لكل من أدى مناسك حجه ، وانتهى من طوافه وسعيه ، ووقوفه ورميه ، ومن هنا حُقَّ لأبى طالب أن يستعيذ به ، لأنه والحالة هذه يكون قد انخلع عليه من

---

(١) اللسان ١١/٦١٠

(٢) ينظر : شعر أبى طالب دراسة أدبية الفصل السادس ، ص ٢٤ .

نور الفريضة ، وبهاء البيت الحرام ما يؤهله لأن يُستعاذ بـه عنـد الكروب والمدلهمات – من وجهة نظر أبى طالب .

والإضافة فى قوله : (بيت الله) إضـافة تشـريف وتعظـيم ، وإجلال وتكريم ، لأنه إذا كان (بيت الله) فليس هناك سواه يقصـد ويؤم في إجابة الدعاء وطلب اللطف في القضاء . وإذا كان أبو طالب قد قصد جموع الناس التى يتأتى منها الحج في قوله : (ومـن حـج بيت الله) فإنه عاد وبيَّن أحوالهم فى وفودهم إلى هذا البيت العتيـق فقال : (من كل راكب... ومن كل ذى نذر... ومن كل راجل) .

و(من) التى ابتدأ بها هذه الأصناف الثلاثة هـي الدالـة علـى ابتداء الغاية ، وابتداء الغاية كما هو معلوم يكون فى الأمكنة كثيراً – كما في قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ [الإسراء١] ، ويكون فى الأزمنة قليلا كمـا في قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة١٠٨]، ويكون في الأفراد كما فى قوله: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾[النمل٣٠](١).

و(كل) في الأنواع الثلاثة مستعملة في حقيقتها ، وهى الدلالـة على الإحاطة والشمول واستغراق الجنس ، وأكد هذا الشمول وهـذه الإحاطة بالتنكير الوارد فى الأنواع الثلاثة (راكـب – وذى نـذر – وراجل) للدلالة على العموم والشمول واستغراق كل من وفد إلى بيت الله راكباً أو راجلاً –أى ماشياً على رجليه– أو كان صاحب نذر .

---

(١) ينظر :مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشـام الأنصـارى ٤١٩/١ ، تح/مازن المبارك –دار الفكـر بيـروت ط السادسـة ١٩٨٥م.

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب كرر (من) مع صاحب النذر ومع الراجل ، فقال : (ومِنْ كُلِّ راكبٍ ومِنْ كلِّ ذى نَذْرٍ ومِنْ كلِّ رَاجِلِ) ، ولم يقل : ومن كل راكب وذى نذر وراجل ، وما ذاك إلا ليؤذن باستقلال أمر الاستعاذة فى كل واحد منهم على حده ، ولئلا يتصور أن جميعهم في مرتبة واحدة في هذا الشأن ، وذلك مبنى على مراتبهم في وفودهم نحو البيت ، فالراكب في الأجر دون الراجل وإن كان الأكثر قدوما ، وصاحب النذر ليس كالمتطوع ، ولكنهم إذا اجتمعوا كان أمر الاستعاذة بهم أشد ، وبأنفاسهم أقوى.

ويلاحظ كذلك أنه في الاستعاذة بصاحب النذر قال : (ومن كل ذى نذر) ولم يقل: ومن كل ناذر ، كما قال : (ومن كل راكب ...وراجل) ، وذلك لأن ذا النذر يختلف عن الناذر ، لأن الناذر قد لا يفى بنذره ، أما ذو النذر فهو الذى قطع على نفسه نذراً بحج لا ينوى عدم الوفاء به ، ومِنْ ثَمَّ استحق أن يستعاذ به ، خاصة إذا أدى فريضته وقضى من بيت الله نهمته ، وفضل ذى النذر على الناذر كفضل ذى الكرام على الكريم ، وذلك لأن الكريم قد يعتريه الإمساك في بعض الأحوال ، أما ذو الكرم فهو بمعنى: صاحب الكرم، والمصاحبة تقتضى الملازمة وعدم الانفكاك عما وصف به.

ولا ينبغى غضُّ الطرف عن توفيق الشاعر في تحقيق مراعاة النظير[١] بين قوله : حج- بيت الله -راكب - وراجل ، وأنت ترى

---

(١) ينظر :خزانة الأدب للحموى١/٢٩٣ تح/عصام شعيتو-دار ومكتبة الهلال - الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

"أن الكلمات كأنها من بنات جذر واحد ، تتشابه وتتلامح وتتقارب ، وهذا لا يتهاون به في تذوق الكلام"[١] .

قوله:

فهل بعدَ هذا مِنْ مَعاذٍ لعائذٍ ∴ وهل مِنْ معيذٍ يَتقى اللهَ عادِلِ

المعاذ بالفتح: اسم مكان من عاذ فلان بكذا إذا لجأ إليه واعتصم به، والمعيذ اسم فاعل من أعاذه بالله أى عصمه به، وعادل : صفة معيذ بمعنى :غير جائر[٢] و(الفاء) التى ابتدأ بها أبو طالب هذا البيت هى الدالة على التعقيب والترتيب بلا مهلة ، لأنه لما أتم جملة هاتيك الاستعاذات ، وأمر تلك التعويذات ، لم يَجِدْ بُدَّاً من تعقيب ذلك بتلك (الفاء) الداخلة على هذا الاستفهام ، فقال : (فهل بعد هذا...) وكأنه لما طال به أمر الاستعاذة ،طال تبعاً لذلك النَّفَسُ الذى يحمل هذه الكلمات ويُبلغ عنه تلكم الضراعات ، ومن ثم كانت هذه الفاء بمثابة المتنفس الذى أراحه من لهيب الشكوى ، وأظله من حرارة البلوى ، وأزال عنه ثقل الجراح التى اكتنفته ، والهموم التى أحاطته.

والاستفهام في قوله : (فهل بعد هذا من معاذٍ لعائذ) استفهام إنكارى فى معنى النفى ، أى: ليس بعد ما ذكرته من مقدسات عند العرب شئ يستعيذ به أىُّ عائذ ، والإشارة فى قوله (هذا) ترجع إلى كل ما سبق ذكره مما استعاذ به واستجار من أول قوله:

---

(١) قراءة في الأدب القديم ، د/محمد أبوموسى ٦٨ – مكتبة وهبة –ط الثانية١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢/٥٦ .

أعوذ برب الناس من كل طاعن ... إلى قوله: ومَنْ حَجّ بيت الله من كل راكبٍ ، وكأن أبا طالب لما حشد كل هاتيك المقدسات التى استعاذ بها ، أراد أن يقابل بها كل ما حشدته قريش وبطونها من أفعالٍ وأقوال وأساليب تَرُوم بها وقف الدعوة المحمدية ، وتبغى من ورائها ردَّ المسلمين على أعقابهم .

ولتأكيد إرادة النفى فى أمر الاستفهام قرنه بـ (من) الزائدة ، فقال: (فهل بعد هذا من معاذ لعائذ) ، فـ (من) هاهنا لتأكيد إرادة النفى حيث إن معنى الكلام يستقيم بدونها ، فمن الممكن أن يقول: فهل بعد ذالكم معاذ لعائذ ، ولكنه لما أراد استغراق جنس المعاذ أتى بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية فيمن يكون منه الملجأ أوالمعاذ ، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة ٤] ، فـ (من) هنا زائدة – فى حكم الإعراب وإلا فليس فى القرآن شئ زائد – إذ من الممكن أن يقال:

ما لكم من دونه وَلِىٌّ ولا شفيع ، ولكنه لما أراد استغراق كل من يصح إطلاق كلمة الولىِّ عليه ، قرن كلمة (ولى) بـ (مِنْ) للدلالة على ذلك ، ونظير ذلك فى القرآن كثير ومعلوم [١] ، ونظير ذلك قولك ما معى مالٌ ، وما معى من مال ، فقولك ما معى مالٌ ، يحتمل أن يكون معك مالٌ ولكنه قليل لا يساوى شيئاً ، أما قولك ما معى مِنْ مالٍ فيدل على أنه لا يوجد معك شئ من جنس المعاملات المالية أصلاً .

---

(١) كما فى البقرة ١٠٧ ، والرعد ٢٣٧ ، والكهف ٣٦ ، والأعراف ٥٩ ، وفاطر ٣ .

والتنكير فى كلمتى (معاذ) و(عائذ) للدلالة على العموم والشمول ليشمل كل مَنْ يصح إليه الملجأ وتكون به الاستعاذة ؛ وليشمل كذلك كلَّ عائذٍ أى لاجئ تضطره هموم الدنيا إلى الاستعاذة بمن يتوسم فيه الخير والنفع .

أما قوله (وهل مِنْ مُعيذٍ يتقى الله عادلِ) فهو استفهام له من التمنى نصيب وافر ، حيث يتمنى أن يكون هناك مُنصف من أهل الرأى والمشورة يُعيذه ويُجيرهُ من قريش ومقاطعتها ، و(من) فى قوله: (وهل من مُعيذ) زائدة لتوكيد العموم الذى أفادته النكرة فى قوله: (معيذ) ليَعُمَّ طَلَبُه كلَّ ما مِنْ شَأْنِهِ أن يكون معيذاً عادلا أومجيراً مُنصفاً يعيذه من ويلات الهجران ، ولهيب التنكر لأهل الفضل والعرفان .

والتعبير بالمضارع فى قوله: (يتقى الله) يدل على حدوث أمر التقوى منه مراراً ، فليس لها عنده زمن دون آخر ، ولا مكان دون غيره ، ولا موقف دون سواه ، ومِنْ ثمَّ فهوالمُرَجىّ فى أمر الاستعاذة ، لأنه حينئذ لا يتأثر بموقف قريش من بنى هاشم ، ومن هنا وسمه أبو طالب بأن يكون عادلاً حتى يكون كَرُمَّانَةِ الميزان فى العدل بين طرفيه ، والمساواة بين جنبيه ، ليتحقق على يديه رفع الظلم وهدم القطيعة التى نالت بنى هاشم من قريش وحلفائها .

رابعاً: النعىُّ على قريش ما فعلتْ وإظهار الشجاعة فى الدفاع عن النبىّ ونصرته

بعد أن استعاذ أبو طالب برب الناس ومقدسات العرب من شرور قريش وظلمها، نعى عليهم فعلتهم ، وبين أن استعاذته لا تعنى أنهم سيقفون مكتوفى الأيدى فى وجه مَنْ يريد رسول الله ﷺ بسوء ، أو سيتركون مكة من أجل هذا الأمر ، بل سيقيمون فيها ليقاتلوا دون نبىّ الله بكل ما أوتوا من قوة ، حتى يهلكوا دونه أوتكون له الغلبة ، وفى ذلك يقول:

يُطاعُ بنا الأعْدا وَوَدُّوا لَوانَّنا ... تُسدُّ بنا أبوابُ تُركٍ وكَابُلِ
كذبتمْ وبيتِ اللهِ نَتْركَ مكةً ... ونظعنَ إلا أمرُكمْ فى بَلابلِ
كذبتم وبيتِ اللهِ نُبْزَى محمداً ... ولَمّا نُطاعنْ دونه ونناضِلِ
ونُسلِمُه حتى نُصَرَّعَ حَولَه ... ونُذهلُ عن أبنائِنا والحلائلِ
وينهضَ قومٌ فى الحديدِ إليكمُ ... نُهوضَ الرَّوايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصِلِ
وحتى تَرى ذَا الضِّغنِ يركبُ رَدْعَه ... منَ الطَّعنِ فِعلَ الأنْكَبِ المُتَحَامِلِ
وإنّا لعَمرُ اللهِ إنْ جَدَّ ما أَرَى ... لَتَلْتَبِسَنْ أسيافُنا بالأمَاثِلِ
بكَفّى فتىً مِثْلَ الشهابِ سَمَيْدَعٌ ... أخِى ثقةٍ حامى الحقيقةِ باسِلِ

قوله:

يُطاعُ بنا الأعْدا وودّوا لَواننا ... تُسَدُّ بنا أبوابُ تُركٍ وكابُلِ

(الأعدا) هنا جمع عَدُو، وترك وكابل: بلدان من بلاد العجم[(١)]، وقوله: (يطاع بنا الأعدا) نَعْىٌّ على قريش ما فعلت ، ووسم لها بالخفة والطيش ، حين أطاعت ما يأمرها به عدوها فى شأن ابن أخيهم ، وما كان ينبغى أن يصدر منها ذلك ، بل العكس

---

(١) ينظر: خزانة الأدب ٥٦/٢ .

هوالمنتظر والمرتقب ، حيث كان الرجاء منها أن تنصر ابنها وسليلها وتسمو به على سائر العرب .

وقوله: (يُطاع بنا الأعدا) تأكيدٌ لما سبق ذكره مِنْ قَبْلُ فى قوله: (وقد طاعوا أمرَ العدوِّ المُزايلِ) .

والتعبير بالمضارع هنا (يطاع) يدل على استحضار الصورة ومشاهدة الحدث ، وكأنه بذلك يصور لك قريشاً وهى مجتمعة عند العدوِّ مصغية ومطيعة لكل ما يأمر به دونما تردد أو تفكر ، ومعلوم أن للمضارع فى استحضار الصورة ونقل الحدث نصيباً لا يخفى " ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ، لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهى تقع ، ومِنْ ثَمَّ ترى المتكلمين من ذوى الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث المهمة التى يريدون إبرازها وتقريرها فى خيال السامع " [١] .

ثم انظر إلى مواطن الصنعة فى إنشاء العبارة ، حيث بنى الفعل للمجهول فقال: (يطاع) دون: أطاعوا – مع استقامة الوزن فى كُلٍ – وما ذاك إلاّ لأن الفاعل معلوم لا يخفى على ذى لُبٍّ ، أو صاحب نظر ، فليس سوى قريش من يترصد بهم ، ويتمنى هلاكهم ، ويحالف عليهم أعداءهم .

ومن براعة الشاعر فى انتخاب مفرداته، أن فعله المضارع المبنى للمجهول (يطاع) يحتمل أن يكتِسى ثوباً آخر من أثواب

---

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى د/ محمد محمد أبوموسى ٢٦٤ – مكتبة وهبة الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

المعانى ؛ وذلك لجواز أن يكون الفعل على تقدير استفهام محذوف ، أى أيطاع بنا الأعدا ؟ [١] ويكون الغرض منه الإنكار والتوبيخ والنعى على طاعة قريش مَنْ ليس لهم عليهم طاعة .

ولما كانت طاعة هؤلاء الأعداء مسببة عن بغض بنى هاشم وكراهيتهم نُصْرَتهم ابن أخيهم ، كان ذلك مدعاة لأن تكون (الباء) رفيقة الدرب فى أداء هذا المعنى ، ومِنْ ثَمَّ قال: (يُطاع بنا) أى بسبب بغضنا وكراهيتنا .

و(الأعدا) هم الأعداء ، وهو بالمدّ ، ولكنه صار مقصوراً لحاجة الوزن إلى ذلك – كما هو معلوم – ولعلَّ فى حذف الحرف الأخير من الكلمة دلالة على قِصَرِ قَدْرهم عن النيل من بنى هاشم حتى ولو تحالفت معهم قريش ، ومن ثم فهم ليسوا أهلاً لأن ينطق بوصفهم كاملاً كما ينطق بوصف الأحبة .

قوله: (وودّوا) جملة حالية ؛ لأن الواو فيها واو الحال ، وكأنّ التقدير: يطاع بنا الأعداء حال كونهم وادّين أن تُسدَّ بنا أبواب ترك وكابل " وكلُّ جملة حالية جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذلك لأنك مستأنف بها خبراً ، وغير قاصدٍ إلى أن تضمها إلى الفعل الأول فى الإثبات ، فإذا وقعت حالاً ثم امتنعت من الواو فذلك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد"[٢] .

---

(١) ينظر: غاية المطالب ، ص١١٠ .
(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ١٦٩ .

" وهذا كلام دقيق جداً ، وأصله أن الحال خبر ثان مضموم إلى الخبر الأول المقصود من الجملة التى وقعت الحال فيها ، وأن هـذه الحال ، أو هذا الخبر الثانى قد يربو فى نفس المتكلم وتزداد أهميته ، حتى يوشك أن يكون خبراً وحده ، فيؤتى فيه بالواو للدلالة على هذا المعنى ، وهذا وجه كلام عبد القاهر – رحمه الله – " [١]

وهذا ما فعله أبو طالب حين قرن " ودّوا " بالواو؛ لأنه يريد أن يعلمنا أنَّ قوله: (يطاع) خاص بقريش ، وقوله: (وودّوا) راجـع إلى الأعداء ، ومن ثم استأنفه بالواو ليدل على أن هذا ليس معطوفاً على ذلك ، والتعبير بالماضى (ودّوا) للدلالة على تحقق هذا الأمـر وتأكيده ، وأنهم – أى الأعداء – وَدُّوا لوترك بنـو هاشـم مكـة ، ومُنعوا من دخول أقاصى البلاد ، فضلاً عن القريب منها .

وانظر إلى انتخاب أبى طالب لمفردات معانيه ، ومواطن الدقة فى التعبير عن مراميه ، حيث استخدم الفعل (ودّوا) الذى يكشـف عن مكنون القلب وسرائر النفس فى إبراز الأمنية المفقودة ، والمودة الغائبة فى ذهابهم بلا عودة وجلائهم بلا رجعة ، وما يتبع ذلك مـن شفاء النفس من كُلومها وبراءتها من همومها .

وهذه الجملة " ودّوا " حذف منها المسند إليه للعلم به ، ولدلالة سياق الكلام عليه [٢] والتقدير وهم: أى – الأعداء – ودّوا ، ومعلوم

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى ٧١ ٠

(٢) ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسـى ١/١٠٠ تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، عـالم الكتـب – بيـروت – ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م ٠

أن " المتذوق للأدب لا يجد متاع نفسه فى السياق الواضح جداً ، والمكشوف إلى حدّ التعرية ، والذى يسئ الظن بعقله وذكائه ، وإنما يجد متعة نفسه حيث يتحرك حسه وينشط ، ليستوضح ويتبين ، ويكشف الأسرار والمعانى وراء الإيحاءات والرموز ، وحين يدرك مراده ويقع على طُلْبته من المعنى ، يكون ذلك أمكن فى نفسه ، وأملك لها من المعانى التى يجدها مبذولة فى حاق اللفظ " (١) .

وهذا ما قرره شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر حين قال:

" فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيدُ للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبنْ " (٢) .

ولا يخفى أنه ألقى حركة الهمزة فى (أننا) على واو(لو) التى قبلها ليستقيم له الوزن ، فقال: " ووَدُّوا لَوانَّنَا " (٣) .

وقوله : (تُسدُّ) بالمضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر كلما نزلوا مكاناً أو قرعوا باباً من الأبواب، ومجىء الفعل مبنياً للمجهول للدلالة على الاهتمام بالفعل ذاته ، ورغبة الأعداء في حصوله دون النظر إلى مَنْ يَقوم به، أو من أى جهة كان، والباء في قوله (بنا) إما على معنى السببية ، أى تسد بسببنا أبواب ترك وكابل ، أوبمعنى (على) ويكون المراد : ودَّ الأعداء أن نترك مكة ونذهب إلى بلاد

---

(١) خصائص التراكيب ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ١٢١ .
(٣) ينظر: طلبة الطالب ، ص٣٦ .

بعيدة كبلادِ تُرْكٍ وكابُلِ فتسد علينا أبوابهما فلا نرجع[١] ولا يخفى أن ها هنا مضافاً مقدراً في بناء الجملة وأن الأصل : تسد بنا أبواب بلاد ترك وكابل ، ولكنه حذف للعلم به .

وإذا كان أبو طالب قد كشف في قوله : "وودُّوا" عن الأمنية الدفينة في صدور هؤلاء الأعداء، وموافقة مَنْ علمها من قريش على الرغبة في تحققها ، فإنه هنا جهر لهم بأن أمنيتهم باطلةٌ خاطئةٌ كاذبةٌ فقال :

كذبتم وبيتِ اللهِ تتركُ مكةً ∴ ونظعنُ إلاّ أمرُكُمْ في بلابل

وقوله : (كذبتم) بمعنى : بطل أملكم وخاب وخسر في أن نترك مكة[٢] والتعبير عن هذا البطلان وذلك التكذيب بالفعل الماضى (كذبتم) للدلالة على عدم تحقق هذا الأمل، فلا رجاء في حدوثه، ولا أمل في حصوله .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب قال: (كذبتم) بصيغة الخطاب، بينما قال في البيت السابق: "وودُّوا" بصيغة الغائب، وهذا الالتفات[٣] من الغيبة إلى الخطاب جاء جرياً على "عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب

---

(١) ينظر: غاية المطالب١١٠

(٢) ينظر: غاية المطالب ص١١٠

(٣) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٤٥/٢ ، تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل – الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

واحد" [١] "وذلك لأن البقاء علـــى أســـلوب واحـــد تملـــه الـــنفس ، والمراوحة بين الأساليب مما يجدد نشاط هذه النفس"[٢] وفيـــه مـــن الدلالة على براعة أبى طالب في انتخاب ألفاظه لمعانيه ما لا يخفى ، حيث عبر عنهم بالغيبة في موطن الأمنية الغائبـــة فقـــال : "وودُّوا" وكأنه بذلك يريد أن يمنعهم شرف الحضور والمشـــاهدة ومخاطبتـــه إياهم بقوله : لو أراد –ودِدّتُم لَوَانَّنَا ... إلخ .

وكأنه يقرر لهم أنهم بتلك الأمنية الغائبة غائبون بحـــق عـــن الواقع المحسوس والمشاهد الملموس، من أنهم باقون حاضـــرون لا يستطيع أحد أن يخرجهم من أرضهم وديارهم ، وفى هذا من التلاؤم والائتلاف بين اللفظ والمعنى[٣] ما هوبين وواضح .

أما هنا فلا بد من المواجهة والتحدى وإظهار القوة والنفاجـــة في خطابهم ومحادثتهم ، حتى لا يظن به الضعف والفتور ، ومن ثم استلزم السياق أن يكون الكلام بتاء الخطاب دون الغيبة فقال : "كذبتم " ليدفع بها في وجوه القوم صريحة مدوِّية ، حاضرة غير غائبـــة ، ليعلمهم أن هذه الأمنية لا ينبغى لها أن تصدق –وهى في حال الغيبة – فضلا عن أن تكون واقعاً يراه الناس ويصـــير حـــديثهم ومضـــغة أفواههم .

---

(١) الكشاف للزمخشرى١/٥٦ تح/عبد الرزّاق المهـــدى–دار إحيـــاء التراث العربى –بيروت

(٢) الشعر الجاهلى د/محمد أبوموسى٢٩٨ .

(٣) ينظر : نقد الشعر لقدامة ١٩٥ .

قوله : (وبيت الله) قسم ومقسم به ، وفي اختيار (بيت الله) ليجعله محل القسم دلالة على تأكيده تأكيداً لا رجعة فيه ، وأن تلك الأمنية لا تتحقق إلا إذا الصدور عن القلوب تُشقق ، وذلك لما للبيت من تعظيم وحرمة في نفوس القوم بحيث لا يحنثون إذا حلفوا أو أقسموا به .

قوله : (نترك مكة) جواب للقسم السابق محذوف ألْـ (لا) والتقدير: لا نتركُ مكة ، وكثيراً ما تحذف هذه ألـ (لا) فى جواب القسم ، كقوله تعالى : ﴿ تَاللّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف٨٥]، أى : لا تفتأ ، ومنه قول امرىء القيس :

فقلتُ يَمِينُ اللهِ أبرحُ قاعداً ∴ ولو قطّعوا رَأسِى لديكِ وَأوْصَالي[1]

والتقدير: لا أبرحُ ، وكذلك قول حسان بن ثابت:

واللهِ أسمعُ ما حَيِيتُ بهَالِكٍ ∴ إلاّ بكيتُ على النبيِّ محمدِ[2]

والتقدير : لا أسمع

قوله: (ونظعن) عطف على جواب القسم، والتقدير: لا نظعن، والظعن: التحول من بلد إلى أخرى[3]، وكأنه يريد بذلك أن يقول لهم : كذب أملكم فى أن نترك مكة ونهجرها ، فضلا عن أن نتحول عنها إلى ما سواها، كيف وليس على وجه الأرض بقعة هى أطهر ولا أنقى ولا أشرف منها؟ ؛ كيف وهم أسيادها وأشرافها وأصحاب الكلمة

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٣٧ .
(٢) ديوان حسان بن ثابت شرح عبد الرحمن البرقوقى ، ص٩٨ – المكتبة الرحمانية – مصر – ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .
(٣) اللسان١٣/٢٧٠

فيها ؟ ؛ كيف وهي متقلبهم ومثواهم وحاضنة شيخوتهم وصباهم ؟ ؛ وأَرَانِى لا أَجِدُ مَدَىً لــ(كيف) دون انقطاع النَّفَس وزوال النَّفْس.

قوله : (إلا أمركم في بلابل) حال، أى: لا نظعن كائنــاً أمــركم على حالٍ إلاّ على حالِ كَوْنِ أَمْركم في بلابل ، والبلابل :جمع بِلْبــال بالكسر والمراد بها: الأحزان والهموم، وهو بذلك يهددهم بالحرب[1] التى تجر وراءها فَقْدَ العزيز وسَلْبَ النفس لمَنْ اكتوى بنارها ، ومن ثَمَّ يتوافق هذا التهديد بإشعال نار الحرب بينهما مع تلك المواجهــة بصريح الخطاب الذى صدر به بيته فقال : كذبتم وبيــت الله نتــرك مكة...إلخ

قوله :

كــذبتم وبيــتِ اللهِ نُبْــزى محمــداً ∴ ولَمــّا نُطَاعــنْ دُونَــه ونُنَاضــلِ

أول ما يلاحظ في هذا البيت أن أبا طالب كرر التعبير التركيبى (كذبتم وبيت الله) المتكون من الجملة الفعلية ، المتبوعة بجملة القسم في الخطاب الشعرى الموجه لمشركى قريش بعدم التخلى عن النبــى محمد -ﷺ- وما ذاك إلا لتأكيد هذا المعنى فــي أذهــانهم ، وهــو يطرقها بنغمة التحدى والمواجهة والمجابهة ، وقوله هذا يــنم عــن قائد شجاع ورئيس مطاع ، وسيد ذى صرامة ونجدة ، وبأس وشدة ، حين تضطره الظروف لذلك ، وليس فوق نصرة ابــن أخيــه مــن اضطرار ، ولا في الدفاع عنه من فرار ، ومِنْ ثَمَّ فهو يقذف بكلمــة الكذب في وجوههم ، ويكررها لهم ، ليضفى هذا التكرار نغماً إيقاعياً قاسياً في نفوس القوم ، إذا استحضروا معناه فى أذهانهم . ولعل في

---

(١) ينظر : طلبة الطالب٣٦

هذا التكرار وجهاً آخر غير ما ذُكر ، وهو أنه تعبير انفعالى وجد فيه أبو طالب متنفساً عما يجيش في صدره من ثورة نفسية تجاه المعاندين رسالة السماء ، المُؤْذِيْنَ رسولَ الله أشرف الأنبياء[١] فكأنه "يفرغ في هذا التكرار كثيراً من انفعالاته المتوترة ، وكثيراً ما يعتمد الشعراء على التكرار ويتخذونه وسيلة من وسائل التخفيف والإفراغ[٢] "

قوله : (نبزى محمدا) جواب للقسم في قوله : (وبيت الله) على تقدير (لا) النافية -كما مَرَّ في قوله : كذبتم وبيت الله نترك مكة - و(نُبزى) بالبناء للمجهول بمعنى نُقهر ونغلب عليه ، مِنْ بَزَى الرجلَ وأَبْزَى به : إذا قهره وبطش به[٣] و(محمدا) -ﷺ- منصوب بنزع الباء ، أى لا نُغلب بمحمد -ﷺ - بمعنى لا نقهر بسببه.[٤] .

وفي بناء الفعل للمجهول (نبزى) دون ذكر فاعله للدلالة على حقارة هذا الفاعل وَدُنُوِّ منزلته ودرجته ، وقِصَر قامته عن أن يوضع اسمه بجوار اسم رسول الله ﷺ حتى ولوفي اللفظ واللَّحْظ ، أنى وقد شرف الله نبيه وفضله على سائر العالمين ، ووضع قدر عدوه ولعنه وجعله في أسفل سافلين ؛ فشتان ما بين الثرى والثريا ، وأين الثريا من يد المتناول ؟

---

(١) ينظر : شعر أبى طالب دراسة أدبية الفصل السابع ، ص٤٠ .
(٢) قراءة في الأدب القديم١٩٤ ٠
(٣) ينظر : القاموس المحيط للفيروزأبادى ١٢٦٢ – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
(٤) ينظر : خزانة الأدب ٥٧/٢ ٠

ولعل في بناء الفعل للمجهول (نُبزى محمدا) مع حذف فاعله أمراً آخر لا يتعارض مع ما سبق ولا يتنافى مع ما سلف ، ألا وهو التعميم الشمول في نفي الغلبة والقهر من أى عدوٍّ مبغض يروم قتالهم ومصارمتهم لأجل ما جاء به حبيبهم وشريفهم سيدنا محمد ﷺ .

و(لَمَّا) في قوله : (ولما نُطاعنْ دونه ونُنَاضِلِ) هي النافية الجازمة ، وتدل على أن النفي بها متصل بزمان التكلم ، ودلالتها على استمرار النفي إلى زمن التكلم تؤذن غالباً بأن المنفى بها متوقع الوقوع[١] ومن ثم فإن أبا طالب يهددهم بإشعال فتيل الحرب إن استمروا على ما هم عليه ، وحاولوا أن يقهروهم في سبيل الوصول إلى محمد -ﷺ- و(نطاعن) مضارع مجزوم بـ(لما) من المطاعنة وهي الطعن بالرمح ، و(نناضل) من النضال وهى الرمى بالسهم[٢] وفي التعبير بالمضارع في هذين الفعلين دلالة على التجدد والاستمرار في الدفاع عن النبى -ﷺ- بكل أدوات القتال ، سواء كان بالسيف الذى هو العنصر الأول في ساحة الحروب -ولم يذكره لشهرته في هذا الشأن- أم كان بالطعن بالرماح التى تنفذ بالأحشاء إلي خارجها ، أم بالسهام التى تخترق القلوب والرقاب ، وتسكبُ العبرات على فقد الأحباب .

قوله :

ونُسلِمُه حتى نُصَرَّع حولَه ... ونُذهَلُ عن أبنائنا والحَلائلِ

---

(١) ينظر : مغنى اللبيب ١/٨٧١ .
(٢) ينظر: غاية المطالب ص١١٠ .

(ونسلمه) معطوف على جواب القسم في البيت السابق ، أى : ولا نسلمه ، من أسلمه إذا خذله وألقاه في التهلكة[١] والناظر إلى قول أبى طالب في البيت السابق : (كذبتم وبيت الله نبزى محمدا) وقوله هنا (ونسلمه) يَبِيْنُ له أن أبا طالب نفى أن يكون هناك قهر غلبة وبطش في تركه ﷺ لأعدائه اضطراراً ، وهنا نفى أن يسلموه ﷺ لأعدائه طواعية واختيارا ، وفي ذلك دليل على نفى تسليمه وخذلانه -عليه الصلاة والسلام- على أى حال من الأحوال ، حتى يهلكوا دونه -عليه الصلاة والتسليم- وهذا ما بينه بقوله : (حتى نُصَرّع حوله) وكلمة (حتى) هنا تفيد الغاية ، وتدل على إطالة الزمن وامتداد الوقت ، وكأن وراءها مساحات من المشقة والمعاناة في سبيل الوصول إليه ﷺ وكأن الوصول إليه -عليه الصلاة والسلام- غاية لتصريع هؤلاء وقتلهم .

و(نصرع) بالبناء للمجهول ؛ لأن الاعتناء هنا بأمر الفعل دون النظر إلى فاعله ، لأن المهم هو بيان عدم تسليمه حتى يصرعوا عن آخرهم .

ومن الممكن أن يضاف إلى ذلك أن أبا طالب بنى الفعل للمجهول دون ذكر الفاعل ؛ لأنه كره أن يُسند فعل تصريعهم وقتلهم إلى أعدائه ، وكأنه بذلك أراد أن يحرمهم شرف هذا الأمر ولوفى نظم الكلمات ؛ لأنهم أقل رتبة وأدنى درجة من بنى هاشم ، سادات مكة وكبراؤها .

---

(١) ينظر : المصباح المنير ١/ ٢٨٧ .

وفى تشديد الفعل (نُصَرَّع) دون (نُصْرع) دليل على المبالغة فى اشتداد القتل فيهم ، وكأن مجرد القتل العادى أو الموت دون معاناة ليس سبيلاً إلى الوصول إليه ﷺ ، وإنما السبيل هو اشتداد القتل وإعمال السيوف والرماح والنبال فيهم ، حتى يصيروا مُقتلين مُصَرّعين فى الدماء ، وما منهم أحد من الأحياء .

وانظر إلى قوله: (حوله) وما فيه من معنى القيد فى أمر التصريع ، فليس مجرد القتل والتصريع هو الذى يؤدى إلى تسليمه ﷺ لأعدائه ، وإنما القتل والتصريع (حوله) لأجل حفظه وصيانته ، ومنعه من أن يصيبه أذى أو مكروه من أحد ، فياله من فداء ، ودفاع عنه ماله انتهاء ، إلا تدفق الدماء من الأحشاء .

قوله: (ونُذْهَل عن أبنائنا والحلائل) أى: نشغل عنهم ونغفل[1] لكوننا مدهوشين مشدوهين حائرين من هول الموقف ، وفى بناء فعل الذهول للمجهول (ونُذهل) للدلالة على أن هذا الأمر خارج عن إرادتهم ومدى قوتهم وقدرتهم ، فليس ثمة من حيلة فى دفعه ، ولا سبيل لهم فى منعه وردّه .

وفى تقديم الأبناء على الحلائل – وهن الأزواج – فى أمر الذهول لأن المرء أشد ما يكون شفقة على أبنائه ، لشغفه بهم وقربهم منه ، وتمكن محبتهم من قلبه ، ومن ثَمَّ أضافهم إلى ضمير التكلم (نا) فقال: ونذهل عن أبنائنا ، والإضافة هنا تنبئ عن قوة التعلق والمحبة التى للأبناء فى قلوب الآباء ، وتنبئ عن شدة

---

(١) اللسان ٢٥٩/١١ .

الاقتران والتلازم بينهما ، وكأن أبا طالب لما عرف هذا القدر من المحبة والاقتران بين الآباء والأبناء لم يرض أن يفصل بينهما حتى فى نظم الكلم ، فلم يقل مثلاً : ونذهل عن الأبناء والحلائل ، وإنما قال: (عن أبنائنا والحلائل) .

وفى ذكر الحلائل ثانياً وعطفهن على الأبناء دليل على أنهم فى المرتبة الثانية من المحبة القلبية بالنسبة للرجال .

والمعنى: أننا لا نترك محمداً ﷺ حتى يشتد فينا القتل ونشغل عن أحب الناس إلينا وهم الأبناء والحلائل بحيث لا نلتفت إليهم ولا نهتم بأمرهم [١] .

قوله:

وَيَنْهَضَ قَوْمٌ فِى الْحَدِيدِ إِلَيْكُمُ ... نُهُوضَ الرَّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ

(وينهضَ) بالنصب عطفاً على (نُصَرَّعَ) فى البيت السابق .

والنهوض: البراح من الموضع والقيام عنه [٢] .

وفى ذكر النهوض دون (القيام) لما فى النهوض من استجماع الهمة وقوة الحركة ، بخلاف (القيام) فإنه يكون على مقتضى الطبيعة ، ولا يُنظر فيه إلى شئ من ذلك ، وفى مجئ صيغة : النهوض بالمضارع (ينهض) ليكون هناك توافق وتلازم بينه وبين الأفعال السابقة عليه ، كقوله: نبزى ... نطاعن ... ونناضل ... ونسلمه ... نصرع ... ونذهل ... لأنها فى جملتها تدل على

---

(١) ينظر: طلبة الطالب ٣٧ .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ١٩٩/٤ .

الاستقبال لما يأتى من أحداث ووقائع إن أصيب رسول الله ﷺ بمكروه أوأذى .

ومما يلاحظ هنا أنَّ أبا طالب عبر بصيغة الغيبة فى أمر النهوض فقال: " وينهض " ولم يقل: وننهض ... كما قال من قبل: نطاعن ... نسلمه ... نصرع ... نذهل ، وهذا الالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة له من الفائدة العامة أنه يحدث تطرية لنشاط السامع ، ويحرك ذهنه للإصغاء والانتباه إلى ما يلقى إليه [١] .

أما الفائدة التى يقتضيها المقام فهى أن أبا طالب لما قال: حتى نُصَرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل ، أراد أن يبين لقريش أنهم إن هلكوا دونه ﷺ فلا يعنى هذا أن أمر الوصول إليه بات سهلاً ميسوراً ، بل سوف يأتى قوم آخرون ينهضون فى دروعهم وسلاحهم للدفاع عنه ﷺ وهو بذلك يلقى فى نفوس أعدائه اليأس والقنوط من الوصول إليه ﷺ والنيل منه ، حتى ولو بشوكة يشاكها .

والتنكير فى قوله (قومٌ) للتكثير والتعميم ، فليس ثمة قوم بعينهم هم من ينهضون أو يدافعون عنه ﷺ بل الأمر على عمومه وإطلاقه فى بنى هاشم وبنى المطلب ، لِمَا يعلم أبو طالب من محبتهم لابن أخيه ، ويقينهم أن ما جاء به صدق لا ريب فيه .

والنهوض فى الحديد من قوله: (وينهض قوم فى الحديد إليكم) كناية عن الشجاعة والبسالة فى اقتحام ساحات الحروب ، وتمكين

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكى ١٩٩ ، تح/ نعيم زرزور – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

الرماح من القلوب ، ومراده من ذلك أن هؤلاء القوم الذين ينهضون للدفاع عنه ﷺ ليسوا مجردين من وسائل القتال وأدوات النزال ، بل تراهم متلبسين بدروعهم ، مُشهرين سيوفهم ، مُتنكِّبين أقواسهم ، حاملين رماحهم فداءً له ﷺ .

وقوله: (نهوضَ الرِّوايا) بالنصب على المصدرية ؛ لأنها مفعول مطلق للفعل (ينهض) الواقع فى صدر البيت .

و(الروايا) جمع: راوية وهو البعير أو البغل أو الحمار الذى يُسْتقى عليه ، وذات الصلاصل: هى المزادة التى ينقل فيها الماء ، والصلاصل جمع صُلْصُلة بضم الصادين، وهى بقية الماء فى المزادة[١] .

والمعنى: أن هؤلاء القوم ينهضون إليكم فى الحديد مُثَقَّلين به، وتسمع لهم قعقعة كصلصلة الماء فى المزادات [٢] .

وهذا – كما هو بين – من التشبيه الواضح ، حيث شبه نهوض القوم فى دروعهم وسلاحهم بنهوض الجمال التى تحمل المزادات التى يُنقل فيها الماء ، وشبه قعقعة الحديد الملبوس بصلصلة الماء المنقول فى تلك المزادات ، وفى ذلك من الدلالة على قوة القوم وشجاعتهم ما يبعث فى نفوس أعدائه الرهبة والهيبة والخوف من أن يتعرضوا له ﷺ بأىٍّ لونٍ من ألوان الأذى ،أوأن يحاولوا إصابته بأىِّ سوءٍ كان ، فداه أبى وأمى ﷺ .

---

(١) خزانة الأدب ٢/٥٧ ، ٥٨ .
(٢) غاية المطالب ، ص١١١ .

قوله:

وحَتَّى تَرَى ذَا الضِّغْنِ يَرْكَبُ رَدْعَه ... مِنَ الطَّعْنِ فِعْلَ الآنَكَبِ المُتَحَامِلِ

الضَّغْن بالكسر: الحقد ، والرَّدْع بفتح الراء وسكون الدال : اللطخ والأثر من الدم [١] والأنكب: المائل إلى جهة ، والنَّكَب بفتح النون والكاف: داء يأخذ الإبل فى مناكبها فتظلع منه وتمشى منحرفة، يقال: نَكِبَ البعيرُ يَنْكبُ نَكَبَاً[٢] والمتحامل: المتكلف السير مع أَلَمِه .

أما عن الواوالتى ابتدأ بها أبو طالب بيته فقال: (وحتى نرى...) فهى عاطفة لحدث على حدث ، فقد عطفت قوله: (حتى نرى) على قوله: (وينهض) المعطوف قبلُ على (ونذهل) وهى بذلك تضم لك الأحداث فى بوتقة واحدة ، ودائرة منفردة ، هى دائرة الحرب والقتال من أجله ﷺ لتعلمك أن تسليمه ﷺ إلى أعدائه لا ينتج عن حدث مفرد ، أو فعل واحد ، وإنما – إن وقع – فعن أحداث ملتهبة ، وضربات مهلكة تُدق فيها الأعناق ، وتلتف فيها الساق بالساق ، ومن ثم جاء بـ (حتى) فى أنف البيت ، لدلالتها على إطالة الزمن ، وامتداد الوقت فى الغاية المرجوة ، فقال: (وحتى نرى ذا الضِّغْن يركب رَدْعَه ...) وكأن وراءها وقائع ممتدة ، وصوراً متعددة من النزال والطعان ، وصراع الأقران ، فى سبيل الوصول إليه .

---

(١) خزانة الأدب ٢/٥٨ .

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى ٤/٣٠٦ ، تح/ مجموعة من المحققين – دار الهداية.

والرؤية فى قوله: (حتى نرى ذا الضغن) بصرية ، للدلالة على إدراك المرئى فى مشهد يحرص المتكلم على تأكيد رؤيته ، وهذا ما ابتغاه أبو طالب من التعبير بها ، حيث أراد أن يدرك الرائى ويشاهد هذا الحاقد والحاسد ، وهو فى عداد القتلى والصرعى ، ومن ثم جاء بالفعل فى صيغة المضارع المبنى للمعلوم فقال: (نرى) لينقل لك صورة هذا الحاقد وهو مضرجٌ بدمه منكبٌ على فمه .

والتعبير بقوله: (ذا الضغن) دون أن يقول: وحتى نرى الضاغن؛ لأن الضاغن هو مَنْ يحمل فى نفسه حقداً يتردد فى صدره، فتارة يشتد أُواره وتارة يخمد لهيبُه ، أما ذو الضغن فهو بمعنى صاحب الضغن ، والمصاحبة تقتضى الملازمة والاقتران ، ومِنْ ثَّم فهو مرتبط بضغنه وحقده ارتباط الصديق بصديقه والصاحب بخليله ، ولذلك فهو أشد من الحاقد العادى ؛ لأنك لا تستطيع أن تسلّ منه ضغنه ، أو تمحو عنه حقده .

وجملة (يركب رَدْعه) من باب الكناية الرائعة ، إذ هى كناية عن الصفة التى يصير إليها هذا الحاقد فى معمة القتال ، وساحة النزال ، حيث يخر لوجهه على دمه قتيلاً صريعاً مما يلاقيه من الطعن بالسيف أو الرمح أو ما سواهما .

والتعبير بالمضارع (يركب) للدلالة على الاستقبال ، وكأن قوله: (يركب ردعه) رسالة من أبى طالب لكل صاحب حقد على ابن أخيه أنَّ مصيره سيؤول إلى القتل والتصريع .

قوله: (من الضِّغن) متعلق بـ (يركب رَدْعه) و(فِعْلَ الأنكب) منصوبٌ على المصدرية لفعل محذوف ، أى يفعل فعل الأنكب .

والمعنى: إننا ننصره ﷺ حتى يسقط الحاقد من سرجه على رأسه متشحطاً فى دمه مما يتلقاه من طعن رماحنا ، كأنه مائلٌ متكلف بأن يميل عن فرسه (١) .

وإذا كان أبو طالب قد هدد فى البيت السابق أنهم لا يسلمون رسول الله ﷺ حتى يركب الضاغن رَدْعه، فإنه أعاد وأكَد هذا الأمر مرة ثانية ، ولكنه وَسَّع دائرة التهديد وأفسح مجال الوعيد ، ليشمل السادة قبل العبيد ، والذكىّ منهم قبل البليد فقال:

وإنّا لَعَمْرو اللهِ إن جَدَّ ما أرَى ... لَتَلْتَبِسَنْ أسيَافُنَا بالأمَاثِلِ

وتصدير البيت بأم أدوات التوكيد (إنَّ) للدلالة على أهمية ما يأتى بعد هذا التوكيد من خبر ، وهو توكيد مراعى فيه حال الذين أنكروا – رسالته – ﷺ ولم يؤمنوا به وآذوه لذلك ، ومراعى فيه – كذلك – حال المدافعين عنه المانعين له – ﷺ من أهله وعشيرته ، ليبعث – فى نفوس الجميع – على مزيد الاهتمام منهم لما هو بعده ، ومن ثم فالتوكيد الواقع فى صدر البيت هنا مستعمل فى معنييه : دفع الإنكار والاهتمام ، ثم أردف أبو طالب هذا التوكيد بقسم آخر وزاده توكيداً على توكيده فقال: (وإنّا لعَمْرو الله) .

---

(١) ينظر: طلبة الطالب ص٣٨ .

وعَمْرُ الله بمعنى: حياته ، وعَمْرُ الله: مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره: قسمى أو يمينى ، وقد حذف المسند من بناء الجملة للعلم به – كما هو معلوم " ولأن ذكره فى العبارة بعد دلالة القرينة عليه عبث يذهب بطلاوة الشعر " [١] .

قوله: (إنْ جَدَّ ما أرى) إنْ: شرطية ، وجَدَّ بمعنى: لَجَّ ودام وعظم و(ما) موصولة ، وأرى : من رؤية البصر ، والمفعول محذوف وهوالعائد [٢] ، أى: أراه ، والمعنى: إن دام وعظم هذا العناد الذى أراه لتلتبسن ...

ومما يحسب لأبى طالب فى هذا المقام تدقيقه فى انتخاب مفرداته واصطفاء ألفاظه ، حيث آثر التعبير بـ (إنْ) فقال: (إنْ جَدَّ ما أرى) ... دون أن يقول : (إذا جدّ ما أرى)، وذلك لأن (إنْ) تفيد التقليل والشك فى وقوع الشرط ، وكأن أبا طالب يعلم أن عنادهم واستكبارهم لا يمتد بهم طويلا ، ولا يجدون لصمودهم على ما هم عليه سبيلا ، ومع ذلك إن حصل ودام هذا العناد ، وامتد بهم الجفاء وتنكبوا سبل الوداد ، فسوف ينهزمون فى ساحة النزال ، وتخطب سيوف بنى هاشم على رؤوس السادة الأبطال .

كما يحسب لأبى طالب – كذلك – أنه حذف مفعول (أرى) لأن فى حذفه دلالة على العموم والشمول [٣] لكل ما يراه من قريش من

---

(١) خصائص التراكيب ٢٧٣ .
(٢) خزانة الأدب ٢/٥٨ .
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز ١٣٢، والأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم تح/ عبد الحميد هنداوى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

العناد والاستكبار ، وطول المقاطعة وشدة الحصار ، وما يتبع ذلك من قطيعة الأرحام ، وسوء العلاقة بين بنى الأعمام .

قوله: (لتلتبسن أسيافنا بالأماثل) واقع فى جواب القسم بـ(عَمْرو الله) الذى سدَّ مسدّ جواب الشرط وجوباً فى قوله (إن جَدّ ما أرى) [١] .

ومعنى (تَلْتَبِسَنْ) أى: تختلطن ، والالتباس : الاختلاط والملابسة [٢]

والأماثل جمع أمثل، والمراد بهم الأفاضل والأشراف منهم[٣]، والمعنى: إن دام هذا العناد الذى أراه تنل أسيافنا أشرافكم [٤] بالقتل والتنكيل ، وهو بذلك يتوعدهم ويهددهم بحرب عوان ضروس تطحنهم طحنا ، ولا تبقى من أشرافهم أحدا .

ولا يخفى ما فى قوله (لتلبسنْ أسيافنا بالأماثل) من المجاز العقلى ، حيث أسند التلبس والاختلاط إلى الأسياف ، والأسياف لا تتلبس وحدها برقاب المقتولين ، وإنما هى آلة لهذا القتل وأنت " تعلم أنه لا يقع فى النفس من هذا الإثبات صورة ، ما لم تنظر إلى إثبات الفعل لمعمل الأداة والفاعل بها " [٥] .

---

(١) ينظر: خزانة الأدب ٢/٥٨ .
(٢) ينظر: المصباح المنير ٢/٥٤٨ .
(٣) ينظر: اللسان ١١/٦١٠ .
(٤) طلبة الطالب ٣٩ .
(٥) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ٣٨٨ ، تح/ محمود محمد شاكر – دار المدنى – جدة – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

وإذا كان أبو طالب قد هددّ قريشاً بالحرب الضروس التى أفسح فيها مجال الوعيد ، فقد بين هنا من يقود تلك الحرب ومن ستكون بكفه الضربة التى تلتبس بأماثل القوم وأشرافهم ، فقال:

بكَفّىْ فتىً مِثْلَ الشهابِ سَمَيْدعٌ .... أخِـى ثقـةٍ حامـى الحقيقةِ باسِـلِ

قوله: (بكفى) بصيغة التثنية مضاف إلى فتى ، والباء متعلقة بـ (تلتبسنْ) فى البيت السابق (١) .

ولا يخفى أن قوله: (بكفى فتى) من المجاز المرسل ، والعلاقة هى الجزئية ؛ لأن الكفين جزء من هذا الفتى الموسوم بالصفات المقبلة فى البيت وهى " مثل الشهاب – سميدع – أخى ثقة – حامى الحقيقة – باسل " ولكن لما كان لهذين الكفين كبير شأن فى ساحات الوغى وملاقاة العِدا ، أطلق الجزء وأراد كل الفتى وليس يديه وحدهما . والفتى المذكور هنا هو رسول الله ﷺ (٢) .

وإنما قال أبو طالب: (بكفى فتى) مع أنه ﷺ قد جاوز سن الفتيان ، إلى سن الرجولة التى يكون على رأسها بعث الأنبياء والمرسلين ؛ لأنه ﷺ وإن كان قد تجاوز عمر الفتى إلا أنَّ قوة الفتوة ، وعزيمة الشباب باقية فيه ، بحيث لم تغادره ولم تجاوزه ، وكذلك لأنهم يطلقون هذا الوصف (فتى) ويريدون به صفة المدح الدالة على استكمال خصال الرجل المحمودة ، ومن ثم قالت الخنساء فى أخيها صخر:

---

(١) طلبة الطالب ٣٩ .
(٢) ينظر: خزانة الأدب ٢/٥٩ .

فتىً كانَ ذا حِلْمٍ أصِيلٍ وَتُؤْدَةٍ ∴ إذا ما الحُبَى مِنْ طَائِفِ الجَهْلِ حُلَّتِ (١)

وقال لبيد :

فتىً كـانَ أمّاكُـلُّ شـئٍ سألتـه ∴ فيُعْطى وأمّا كُلُّ ذنبٍ فَيَغْفِرُ (٢)

وقال الأعشى:

فتىً لو يُنادى الشّمسَ ألقَتْ قِنَاعَها ∴ أو القَمَرَ السَّارِي لألقَى المَقَالِدا (٣)

وقال النابغة:

فتىً لَمْ تَلِدهُ بنتُ عَمٍّ قريبةٌ ∴ فَيَضْوَى وَقَدْ يَضْوَى سَلِيلُ الأقَارِب (٤)

وعليه فلا غرابة فى وصف أبى طالب رسول الله ﷺ بأنه (فتى) لأنه – عليه الصلاة والسلام – جمع مع خصال الرجل المحمودة قوة الشباب وعزيمة الفتيان .

وقوله (مثل الشهاب) من التشبيه المرسل (٥) والشهاب شعلة نار ساطعة (٦) .

---

(١) ديوان الخنساء شرح لويس شيخو اليسوعى ، ص٢٢ ، بيروت – لبنان – ١٨٩٦م .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة شرح إحسان عباس ، ص١٦٧ – الكويت – ١٩٦٢م .

(٣) ديوان الأعشى شرح دكتور/ محمد حسين ، ص٦٥ – مكتبة الآداب بالجماميز .

(٤) ديوان النابغة الذبيانى شرح حمدو طمّاس ، ص٢٤ – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

(٥) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – عبد المتعال الصعيدى ٣/٤٥٠ – مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

(٦) مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٢٢٠ .

والمعنى: أنه شجاع لا يقاومه أحدٌ فى الحروب كأنه شعلة نارٍ ساطعة تحرق من يقترب منها [١] .

وفى ذلك دلالة على كامل فروسيته وشجاعته ﷺ ومدى إقدامه فى مدلهمات الخطوب ، واقتحام ساحات الوغى والحروب ، وكيف لا ؟ وقد أعطاه الله قوة ثلاثين رجلاً من أهل زمانه [٢] ليكون قدوة لغيره فى مثل هذه الأمور ، حيث إنه ﷺ الكامل فى كل صفاته وأفعاله ﷺ .

والسَّمَيْدَعُ : بفتح السين وفتح الدال المهملة: السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكناف[٣] ومعنى موطأ الأكناف : أى دمث كريم مضياف لا يتحمل قاصده من زيارته عنتا[٤] . وسميدع بالرفع : خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هو سميدع ، وحذف المسند إليه من بناء الجملة لظهور القرينة الدالة عليه ، حيث قال : (بكفى فتى) ، وهذا الفتى هو سميدع .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب استثنى صفة (سميدع) من بين الصفات التابعة للموصوف – ﷺ – فجعلها خبراً لمبتدأ محذوف ، أى مرفوع ، بينما جعل الصفات الثلاث التى بعده بالجر على التبعية لفتىً ، ولعلَّ السرَّ فى ذلك أن أبا طالب كره أن يكون هذا السيد مجروراً وتابعاً لأحدٍ حتى ولو فى اللفظ ونطق الكلم ، فأراد له أن يكون

---

(١) طلبة الطالب ٣٩ .
(٢) ينظر: صحيح البخارى ١٠٥/١.
(٣) اللسان ١٦٨/٨
(٤) المعجم الوسيط ١٠٤١/٢ .

مرفوعاً بين الجُمل والكلمات ، كما هو مرفوع القدر بين الأبطال والسادات ، ومن ثَمَّ قطع الصفة عن الجرِّ واستأنفها بالرفع محبةً له – ﷺ – ليتناسب ذلك مع دلائل السيادة والقيادة .

قوله : (أخى ثقة) –بالجر بالياء لأنه صفة لفتى المضاف إليه– من الخصال المحمودة التى جمعت فيه ﷺ والثقة مصدر : وثِقَ به يَثِقُ –بالكسر فيهما– : إذا ائتمنه[١]

والعرب تقول لكل من يزاول شيئا ويلازمه: هو أخوه ، فيقولون للجواد الكريم: أخو الجود ، وأخو الكرم ، ومعنى (أخى ثقة) صاحب مَوْثقية يؤتمن ويعتمد عليه[٢]

ومن مستتبعات التراكيب في قوله : (أخي ثقة) أن ثقته بنفسه وبما أوحى الله إليه ، وبأن الله ناصره لا محاله ، تلازمه أين ما كان وحيثما حَلَّ ، وكأن هذه الثقة من لحمه ودمه ، وكأنها بنت أبيه وأمه ، فلا ينفك عنها ولا تنفك عنه[٣] فلا فرق فى وجود هذه الثقة بين العسر واليسر ، والضيق والفرج ، بل في كل أوقاته ﷺ واثق بنفسه وبوعد الله له بالنصر والغلبة .

والحقيقة في قوله : (حامى الحقيقة) هي ما يحق على الرجل أن يحميه من أهله وعشيرته وأصحابه [٤] يقال في المدح : هو حامى الحقيقة وهم حماة الحقائق[٥]

---

(١) اللسان ٣٧١/١٠
(٢) ينظر: طلبة الطالب ٣٩
(٣) ينظر : قراءة في الأدب القديم ٧٨
(٤) ينظر : مقاييس اللغة ١٧/٢
(٥) طلبة الطالب ٣٩

قال لبيد :

أتيتُ أبَا هِنْدٍ بهندٍ ومَالكاً ... بأسْماءَ إنّى مِنْ حُمَاةِ الحقائقِ[(١)]

والتعبير باسم الفاعل (حامى) دون (يحمى) للدلالة على الدوام والاستمرار في هذا الشأن ، فليس له وقت دون آخــر ، ولا مكــان دون سواه [(٢)] بل الحماية مستمرة لهم استمرار بقائه فيهم ووجوده معهم .

قوله : (باسل) من البسالة وهو وصفُ مبالغةٍ في الشجاع ، يقولون شجاع باسل كما يقولون : جواد فياض[(٣)] أو من البَسْل أى : الحَرَام[(٤)] فكأن نفسه محرمة على أقرانه -إن كان له من قــرين أو مثيل ﷺ لشجاعته أو لِمَنْعِه ما فى كفالته من أعدائه .

وعلى كُلٍّ فقد وصف أبو طالب ابــن أخيــه -عليــه الصــلاة والسلام- بست صفات في بيت واحد ، وهى : فتى -مثل الشهاب - سميدع -أخى ثقة -حامى الحقيقة - باسل

وهي صفات مدح يتيه بها فخراً مَنْ كان فيه واحــدة مــنهن ، فكيف بمن اجتمعت فيه وحده ﷺ وزاد عليها غيرها بما أنعم الله بــه عليه من جليل الأخلاق وكريم الصفات ، وكيف لا ؟ وقد وصفه ربــه

---

(١) ديوان لبيد ٢٢٨

(٢) ينظر : معانى الأبنية فى العربية – د/فاضل صالح السامرائى ٥٢ – الكويت – الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(٣) طلبة الطالب ٣٩٠

(٤) ينظر: التعاريف للمناوى ١/١٣١ ، تح/ محمد رضوان الدايــة – دار الفكر – بيروت – ط الأولى ١٤١٠هـ .

بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم٤] ، وفي ذلك دلالة على استكمال خصال الرجل المحمودة في شخصه -عليه الصلاة والسلام- بما لا يدع مجالاً للشك أو للريب في ذلك

خامسا : الحُجَّة على التأييدِ والنُّصرة مع توبيخ مَنْ وافقوا قُرَيْشاً على مقاطعتهم ، ثم الفخرُ بأصالة النسب .

فبعد أن نعى أبو طالب على قريش مقاطعتهم بنى هاشم ، وأظهر حماسته في دفاعه عن رسول الله -ﷺ - وبين أنهم لن يسلموه حتى يصرعوا حوله ويذهلوا عن أبنائهم وحلائلهم ، بين هنا حجته في الدفاع عن هذا الفتى السميدع ، وذلك السيد الفاضل فقال :

وما تركُ قومٍ لا أَبَالك سيداً	يحُوطُ الذِّمارَ غيرَ ذربٍ مُوَاكلِ
وأبيضَ يُستسقى الغَمامُ بوَجْهه	ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأَرَاملِ
يلوذُ به الهُلاَّكُ مِنْ آلِ هَاشمٍ	فَهُمْ عنده فى نعمةٍ وفَواضِلِ
جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْد شمسٍ ونوفلاً	عُقوبةَ شَرٍّ عاجلاً غَيْرَ آجلِ
بميزانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعيرةً	له شاهدٌ مِنْ نَفْسهِ غيرُ عائلِ
ونحنُ الصميمُ مِنْ ذُؤابةِ هاشمٍ	وآلِ قُصَىٍّ فى الخُطوبِ الأوائلِ

أما قوله :

وما تركُ قومٍ لا أَبَالك سيداً ∴ يحُوطُ الذِّمارَ غيرَ ذربٍ مُوَاكلِ

فالناظر الى موقع (ما) في هذا البيت يتبين له أنها استفهامية تعجبية واقعة في بناء الجملة مسنداً إليه ؛ لأنها مبتدأ ، وقوله: (تَرْك) خبر ، وهو مصدر مضاف إلى فاعله (قوم) و(سيداً) مفعول هذا المصدر النائب مناب الفعل (يترك) ، وجملة (لا أبا لك) معترضة بين المصدر ومفعوله[1]

واستعمال المصدر في قوله : (وما تَرْكُ قوم) دون الفعل - حيث لم يقل :وما يترك قوم ...إلخ - للدلالة على الثبوت والدوام في عدم ترك هؤلاء القوم هذا السيد الذى يحوط الذمار ... إلخ ، وكأن

---

(١) ينظر: غاية المطالب ١١٢ .

أبا طالب بهذا التعبير وبتلك الدلالة يبعث رسائل مُؤَيِّسة إلى كل مَـنْ سولت له نفسه أن ينال من رسول الله ﷺ أو يعترضـه بـأذى أن لا سبيل له إلى شيء من ذلك ، كيف ووراء هذا السيد قوم عظام سادوا مكة وأهلها ، وأنى وهو-ﷺ- سيد السادة وقائد القادة ، مـع كونـه شامة في جبين التاريخ وغرة في شجاعة الفرسان .

والتنكير في قوله : (قوم) للدلالة على التعظيم وإعلاء الشأن ، حيث أراد به أبو طالب أهله وعشيرته ممن ناصروه في الشِّعْب .

وقوله : (لا أبا لك) يستعمل كناية عن المدح والـذم ، ووجـه استعماله في المدح ، أن يراد به نفى نظير الممدوح بنفـى أبيـه ، ووجه استعماله في الذم ، أن يراد به أنه مجهول النسب ، والمعنيان محتملان هنا [١] وقد تستعمل الأعراب هذه الكلمة (لا أبا لـك) عند المسألة والطلب ، فيقول القائل للأمير أو الخليفة : انظر في أمر رعيتك لا أبا لك ، وقد سمع سليمان ابن عبد الملك أعرابياً في سـنة جديبة يقول :

رَبَّ العبادِ مَالَنا ومَالَكا

قدْ كنتَ تَسقينا فما بَدَا لَكا

أنزلْ علينا الغيثَ لا أبالَكا

فأخرجه سليمان أحسن مخرج وقال : أشهد أنه لا أبا لـه ولا ولد ولا صاحبه ، وأشهد بأن الخلق جميعاً عباده[٢] .

---

(١) ينظر : خزانة الأدب ٢/٥٩ .

(٢) ينظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/١٠٠ – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

والسيد في قوله (سيداً) من السيادة وهى المجد والشرف[١] وفي وصفه -ﷺ- بالسيادة اعتراف من أبى طالب بفخامة شأنه ، ورفعة قدره ، وعلو منزلته -عليه الصلاة والسلام- وأنه في المجد والسيادة لا يُجارى ، والشرف والريادة لا يُبارى .

قوله: (يُحوط الذِّمار) صفة لـ (سيدا) و(يحوط) بمعنى يرعى ويحفظ [٢]

و(الذِّمار) بالكسر : هو كل ما يجب على الرجل حفظه وحياطته وحمايته ، وإن ضيعه لزمه اللوم ، ويقال : الذِّمارُ : ما وراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه ؛ لأنهم قالوا : حامى الذمار كما قالوا : حامى الحقيقة ، وسمى ذمارا ، لأنه يجب على أهله التزمر له – أى الغضب لأجله – وسميت حقيقة ؛ لأنه يحق على أهلها الدفع عنها[٣]

والتعبير بالمضارع (يحوط) يدل على أن هذا الأمر يقع منه مرة بعد مرة ، ويتجدد في حادثة بعد أخرى ، وكأن حفظه وصيانته وذبه -ﷺ- عن أهله وعشيرته ، وتوفره على مصالحهم ورعايته لهم أمر متجدد لا يعرف التوقف ، وفعل لا يدركه انتهاء .

وانظر إلى قوله : (يحوط الذمار) وما يوحيه لك من أنه -ﷺ- كأنه يحوطهم بعباءته ويلفهم ببُرْدَتِه ، ويدخلهم في كنفه ورعايته ، وما يتبع ذلك من الأمن والأمان لهم ، وما ذاك إلا لأن التعبير "بالفعل المضارع كأنه يجعل لك المعنى حاضراً بين يديك ، وكأن الأفعال

---

(١) اللسان ٢٣١/٣
(٢) ينظر: مختار الصحاح١٦٧
(٣) تاج العروس من جواهر القاموس ٣٨٨/١١

المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور والأحداث ، فلا تسمعها بأذنك فقط ، وإنما تراها بعينيك أيضا "[١] .

والذَرِب : بفتح الذال وكسر الراء : الفاحش البذىء اللسان[٢] ولكن سكنت راؤه هنا للضرورة ، وقوله : (غير ذَرْبٍ) صفة ثانية لهذا السيد الأشم ، أى : غير بذىء اللسان ، وحاشا أن يكون رسول الله ﷺ بذىء اللسان أوفاحش القول ، وهوالموسوم بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم٤) ، وأنى وقد قالت عنه السيدة عائشة – رضى الله عنها– : " لم يكن رسولُ الله ﷺ بفاحشٍ ولا مُتَفَحِّشٍ ولا سَخّابٍ في الأسواق ، ولا يَجْزِى بالسيئةِ مِثْلَها ولكنْ يَعْفو ويَصفَح" [٣] وكيف وقد قال : " إنما بعثتُ لأتممَ مَكارِمَ الأخلاق"[٤] وأنى لمن جاء ليتمم مكارم الأخلاق أن يكون بذىء اللسان أو حاداً في القول فاحشه .

وقوله : (مُواكِلِ) صفة أخرى لهذا السيد السميدع ، وهى من تتابع الصفات على موصوف واحد ، ولكنها صفة منفية عنه وليس لها إليه من سبيل ، إذ التقدير : غير ذرب وغير مواكل ، والمواكل : هوالعاجز الذى يكل أمره إلى غيره ويتكل عليه[٥] ، وحاشاه ﷺ أن

---

(١) قراءة في الأدب القديم ٣٢
(٢) المعجم الوسيط ٣١٠/١
(٣) السنن الكبرى للبيهقى ٤٥/٧ – الناشر مجلس إدارة المعارف النظامية حيدر آباد –الهند– ط الأولى ١٢٤٤هـ .
(٤) السنن الكبرى للبيهقى ١٩١/١٠ .
(٥) ينظر : اللسان ٧٣٤/١١ .

يكون عاجزاً عن إدارة شئون نفسه أو قومه أو أمته ، كيــف وهــو الملاذ في الكروبات ، ومَنْ يُفزع إليه عند اشتداد النوائب والملمات .

ثم يتابع أبو طالب بيان حجته في دفاعه عن ابن أخيه ونصرته فيقول :

وأبيضَ يُستسقى الغَمامُ بوَجْهه ... ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرَاملِ

والواو التى ابتدأ بها أبو طالب هــذا البيــت هــى العاطفــة ، (وأبيض) بفتح الضاد -أى بالنصب- معطوف على قوله : (سيداً) في البيت السابق ، وهو من عطف الصفات على موصوف واحد - كما مر- .

والأبيض هنا بمعنى : الكريم ، وعلى ذلك فإن أبا طالب ينعــت رسول الله ﷺ بأنه سيد كريم ، لأن العرب إذا أطلقت البياض أرادت به الكرم غالبا ، فإذا قالت : "فلان أبيض وفلانة بيضاء فالمعنى على نقاء العرض من الدنس والعيوب ، ومن ذلك قول زهير يمدح هــرم بن سنان :

أَغَرُّ أَبيضُ فَيّاضُ يُفَكِّكُ عَنْ ... أَيدِى العُناةِ وعَنْ أَعناقِها الرِّبَقا [١]

فهو يمدحه بالكرم ونقاء العرض من العيــوب ، وإذا قــالوا : فلان أبيض الوجه ، وفلانة بيضاء الوجه : أرادوا نقاء اللــون مــن الكلف والسواد الشائن"[٢]

---

(١) ديوان زهير بن أبى سلمى ص٧٦ .
(٢) اللسان ١٢٢/٧

قوله : (يُستسقى) بالبناء للمجهول ، والمعنى : يطلب من الله إنزال المطر ببركته ، وقد حذف المسند إليه من بناء الجملة للعلم به ، لأن تقديره : يستسقى المؤمنون الغمام بوجهه ، ولعل في حذف المسند إليه أمراً آخر ، ألا وهو التعميم والشمول لكل من ينتفع بهذه السُّقيا سواء أكانوا مؤمنين به -لأنهم الذين جاءوا يطلبون السقيا- أومن غير المعترفين برسالته -عليه الصلاة والسلام- لأن النفع يعمهم ويشملهم ؛ لمجاورتهم له ﷺ .

وقد عبر أبو طالب عن طلب السقيا بالفعل المضارع (يستسقى) لأنه أراد التجدد والحدوث في طلب السقيا ، كلما تجدد أمر الجدب والقحط في دنيا الناس ، ولكونه أراد أن يشخص لك الحدث ، ويجعله كأنه يقع بين يديك ، وكأن عينيك ترى جموع الناس -وقد أقحطوا- جاءوا إلى رسول الله -ﷺ- يستسقون ببركة وجهه الكريم ومنزلته عند خالقه الرحيم .

والباء فى قوله : (بوجهه) للسببية ،أى : يستسقى الناس الغمام بسبب هذا الوجه الكريم ، الذى لا يوجد على الله أكرم منه لا في الأرض ولا في السماء -ﷺ-

وقوله : (بوجهه) من المجاز المرسل ، وعلاقته الجزئية ، حيث أطلق الوجه وأراد ذاته كلها -عليه الصلاة والسلام- وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف شىء في جسد المرء ، إذ به حياته ، كما أن بالغمام حياة الناس .

قوله : (ثِمال اليتامى) ، الثمال بالكسر : الغياث ، يقال : فلان ثمال بنى فلان أى : عمادُهم وغياثٌ لهم يقوم بأمرهم ، وهوملجؤهم ومُطعمهم في الشدة[١]

وانظر إلى دقة أبى طالب في التعبير عن وجه الانتفاع بصاحب هذا الوجه الكريم ، حيث ذكر في قوله : (يُستسقى الغمام بوجهه) أمر العامة من الناس الذين أصابتهم الفاقة ، وكدّتهم الحاجة ، وأقحطوا وأجدبوا ، فجاءوا يطلبون السقيا من النبى ﷺ أو يتوسلون به إلى الله في إنزال الغيث عليهم ، ولكنه هنا لم يُغفل أصحاب الحاجات الذين لا يستطيعون المجىء أو الإفصاح عما ألم بهم ، وأشد ذوي الحاجات فاقة واحتياجاً هم اليتامى ، ومِنْ ثَمَّ قدمهم على غيرهم فقال : (ثمال اليتامى)

ولكن أمر رسول الله ﷺ مع اليتامى ليس كأمره مع العامة ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- في أمر العامة كان سبباً في إنزال الغيث لهم ، أما مع اليتامى فهوغياثهم الذي به يعيشون وفي كنفه ينشأون ، وتحت ظل جوده وكرمه يهنأون ، وكأن شخصه ﷺ كله قد تحول إلى غيث لهؤلاء اليتامى يكفيهم أمورهم ، ويكشف عنهم ضر ما ينوبهم ، دون أن يكون منهم طلب أوتعرض بالسؤال ، وكذلك الأمر مع الأرامل والمساكين ، حيث يصف أبو طالب رعايته -عليه الصلاة والسلام- لهم بقوله : (عصمة للأرامل) : والعصمة : ما يعتصم به ويتمسك [٢] .

---

(١) اللسان ٩١٠/١١

(٢) ينظر : المحكم والمحيط الأعظم ٤٥٧/١ .

والأرامل: المساكين من رجال ونساء ، ويقال : هو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً ، حيث يطلق على مَنْ فقدت زوجها[١] وعلى كلا المعنيين فهو-ﷺ - عصمة لمن افتقر من الرجال ، ولمن مات زوجها من النساء ، بحيث يمنعهم من الضياع والحاجة ، بما يهيىء لهم من أسباب العيش وسبل الحياة الكريمة التى تحفظ ماء وجوهم من أن يراق على أبواب الناس ، سواء أعطوهم أم منعوهم .

وقوله : (ثمال ...عصمة) يجوز فيهما النصب على أنهما صفتان لـ (سيداً) ، ويكون ذلك من تتابع الصفات على موصوف واحد ، ويجوز فيهما الرفع (ثمالٌ ... عصمةٌ) ، ومن ثم يكون كل منهما خبراً لمبتدأ محذوف أى : هو ثمال اليتامى ، وهو عصمة للأرامل ، وكأن أبا طالب -على رفع ثمال وعصمة- أراد أن يبرز هذا الجزء من المعنى بقطعه عن سابقه ، وحذف المسند إليه من بناء الجملة هو وسيلته إلى ذلك ، لأنه لو ذكره وقال : (هو) لكان هذا الضمير رابطاً واضحاً وقوياً بين هذا المعنى الذى ذكره ، وبين سابقه ، ومن هنا يفوت غرضه الذى أراد أن يبرزه ويميزه عما مضى [٢] ، ودليل ذلك قول الإمام عبد القاهر :

"ومن المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف ، يبدؤون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الأول

---

(١) اللسان ٢٩٤/١١ .
(٢) ينظر : خصائص التراكيب ١٦٦٠

ويستأنفون كلاماً آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ "[١] .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب أسقط (الواو) بين الجملتين فلم يقل : ثمال اليتامى وعصمة للأرامل ، وذلك لأنه أراد الإخبار أولا عن كونه غياث اليتامى وهذه منقبة ، ثم استأنف خبراً آخر بمنقبة أخرى وهى عصمته لمن افتقر من الرجال والنساء ، فكأن كلَّ جملة رأس بنفسها ، وليست معطوفة على الأخرى ، لأن العطف -هنا- يضعف معه المعنى الذي أراد ، ويصير الخبران خبراً واحداً ، والرجل يظهر مناقب ابن أخيه ويوضحها ، ومن ثم ترك العطف ليعدد ما أراد أن يظهره فيه من شمائل وصفات حسنه .

قوله :

يلوذ به الهُلاَّكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهُمْ عنده فى نعمةٍ وفَوَاضِلِ

الفعل (يلوذ) من لاذ بمعنى : لجأ إليه وعاذ به[٢] والهُلَّاك : الفقراء[٣] وقد بدأ أبو طالب بيته بالفعل المضارع "يلوذ" دون (لاذ) -حيث كان له أن يقول : (ولاذ به الهلاك من آل هاشم) - مع استقامة الوزن على ذلك - لأنه أراد أن يبين لك أن التجاء الفقراء واستغاثتهم به ﷺ أمر مستمر متجدد كلما ألمّ بهم حدث أونزلت بهم شدة ، إضافة إلى ما في المضارع من القدرة على نقل الحدث وجعله يتحرك ، وكأنك ترى بعينيك هؤلاء الفقراء يستجيرون برسول الله ﷺ

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٢ .
(٢) اللسان ٥٠٧/٣ .
(٣) المحكم والمحيط الأعظم ١٤١/٤ .

من كرب الزمان ، ويستترون به من محن الأيام ؛ وكيف لا ؟ وقد كان -عليه الصلاة والسلام- ملاذ الملهوفين والضعفاء ، وملجأ المحتاجين والغرباء ، وكان "أجود بالخير من الريح المرسلة"[١] فلا تعرف لعطاياه انتهاء ، ولا يعرف الملتجئ إليه إقصاء -فداه أبى وأمى -ﷺ ومن ثم كان التعبير بالمضارع -هنا -أبلغ في بيان الصورة ، وأتم في نقل الحدث .

وقد آثر أبو طالب أن يعبر عن المحتاجين بـ(الهُلاك) دون الفقراء ؛ ليبين إلى أي مدىً وصل أمر الحاجة بهذه الجماعة ، وليوضح قدر الفاقة التي أصابتهم ، والحاجة التي كدتهم ، حتى صاروا في عداد الهلاك الذين أوشكوا على مفارقة الحياة ، وهذه مبالغة مقبولة من أبى طالب في بيان أثر الجوع وشظف العيش الذي ألم بتلك الجماعة .

و(من) في قوله : (من آل هاشم) بيانية ، حيث أبانت عن الموصوف السابق وهم (الهلاك) ، فقوله : (من آل هاشم) صفة لهؤلاء الهلاك و(هاشم) جد أبى طالب ، وجد النبى ﷺ الأعلى ، واسمه (عمرو) وسمي (هاشما) لهشمه الثريد لقومه أيام المجاعة والقحط ، وانتهت إليه سيادة قريش[٢] ، وإذا كان (هاشم) خيرة قريش وسيدها ، فإن المنتسبين إليه لا يلجأون عند الحاجة إلا لخيرة

---

(١) صحيح البخارى ١/٦٠ .

(٢) ينظر : صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندى ١/٤١٢ تح /يوسف على طويل - دار الفكر - دمشق -ط الأولى ١٩٨٧م

بني هاشم ، وخيرة بني هاشم وخيرة العرب جميعاً هو رسول الله ﷺ الذي هوينبوع الجود والإكرام ، وأصل الخير والإنعام .

وقوله : (يلوذ به الهلاك من آل هاشم) من ذكر الخاص بعد العام ؛ لأن قوله :

(*يستسقي الغمام بوجهه ...... ثمال اليتامى عصمة للأرامل*)

جاء في أمر العامة من الناس المقحطين والمحتاجين والمساكين ، وقوله (يلوذ به الهلاك من آل هاشم) مقصود به خاصة قومه ﷺ وفى ذكرهم بعد العامة تنبيه على فضل عنايته – عليه الصلاة والسلام – بهم ، وتمام إحسانه إليهم ، وكمال رعايته لهم ، وقد بين أبو طالب هذه العناية وتلك الرعاية بقوله : (فَهُمْ عِنْدَه في نِعْمَةٍ وفَوَاضِلِ) إذ (الفاء) في قوله : (فهم) دالة على سرعة استجابته ﷺ لما طلبوه ، وإنفاذه ما أملوه ، من محوآثار الفقر المدقع ، وتلك الشدة المهلكة ، فلا تراهم إلا وقد تبدل حالهم وتغير وصفهم ، فصاروا في سعة من العيش منعمين ، وبمظاهر الإحسان متلبسين .

وانظر إلى دقة أبى طالب في التعبير عن بيان الإنعام عليهم ، حيث يقول : (فهم عنده في نعمة) ولم يقل مثلا : فهم عنده منعمون ، إذ التعبير بالظرفية (في نعمة) يشعرك بأن تلك النعمة صارت وكأنها وعاء لهؤلاء يحتويهم ، وظرفٌ لهم يغطيهم ، فلا تكاد تراهم من كثرة ما عليهم من مظاهر الإحسان والإنعام ، وفي ذلك دلالة على كثرة ما أنعم به رسول الله –ﷺ – عليهم ، بل تعدى الأمر إلى ما هوفوق ذلك ، فلم يكن أمر النعمة التي صاروا فيها قاصرا عليهم فقط ، بل فاضت هذه النعمة منهم حتى تعدت إلى غيرهم من ذوي

الحاجات وأرباب الفاقات ، وفي ذلك يقول أبو طالب : (فهم عنده في نعمة وفواضل) .

والفواضل جمع فاضلة ، وهي النعمة التي تسرى من الإنسان إلى غيره[١] ومِنْ ثَّم كان قول أبى طالب : (وفواضل) إيغالاً [٢] في بيان أثر النعمة على هؤلاء ، حيث دل على أن هؤلاء الفقراء الذين استغاثوا به ﷺ صاروا أغنياء يجودون على غيرهم بما زاد عن حاجاتهم ، وهذا كله بفضل بركته ﷺ بما جاد به عليهم .

ولا يخفى أن قوله : (فهم عنده في نعمة وفواضل) من المجاز المرسل لأن النعمة لا يحل فيها الفقير أو غيره ؛ لأنها معنى من المعانى ، وإنما يحل في مكانها ، ومكانها بينه أبو طالب بقوله : (عنده) أي عند رسول الله ﷺ فهو مكان كل نعمة ومحل كل خير ، ومِنْ ثَمَّ كان قوله : (فهم عنده في نعمة وفواضل) مجازاً مرسلاً بعلاقة الحالية، حيث أطلق الحال وأراد المحل- كما هو بين .

وبعد ما أتم أبو طالب بيان حجته في دفاعه عن ابن أخيه وبين أن دفاعه عنه لكونه سيداً يحوط الذمار غير متكل على أحد في إدارة شئونه ، وبوجهه يستسقى الغمام ، مع عصمته للأرامل واليتامى من الفقر المهلك ، وَبَّخَ هنا بعض بطون عبد مناف بن قصى الذين وافقوا قريشاً فى معاداة بني هاشم ، ودعا عليهم قائلا :

---

(١) كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى ١٠٨٥ تح / عدنان درويش – محمد المصري – مؤسسة الرسالة بيروت – ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م٠

(٢) ينظر : الإيضاح للخطيب القزوينى ١٨٩ ٠

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْد شمسٍ ونوفلاً ... عُقوبةَ شَرٍّ عاجلاً غَيْرَ آجلِ
بميزانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعيرةً ... له شاهد مِنْ نَفْسهِ غيرُ عائلِ

والناظر إلى أول جملة بدأ بها أبو طالب قوله هنا يراها (جزى الله عنا...) وهي جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، إذ المقصود بها الدعاء ، وكأنه قال : اللهم اجزهم عَنَّا..... عقوبةَ شَرٍّ ، وإنما عدل أبو طالب إلى ما عليه النظم ، وابتدأ دعاءه بالفعل الماضى (جزى) ليشعرك بأن دعاءه عليهم قد تحقق ، وأن العقوبة التى رجاها لهم قد وقعت ، وإنما هو الآن يخبرك بأمرها وشأنها ، وليس منتظراً لوقوعها . وهذا من باب قولهم : فلان رحمه الله .

وقد جاء المسند إليه هنا بلفظ الألوهية (الله) ، ولم يقل :

(جزى ربِّي عنا عبد شمس ونوفلا) ؛ لأن المقام مقام دعاء عليهم بالعقوبة ، وهذه يناسبها صفة الجلال والرهبة –وهي الألوهية– ولا يناسبها صفة الإحسان والنعمة –وهي الربوبية– ولعل هنا أمراً آخر فى إيثار لفظ الألوهية على الربوبية ، ألا وهو التعريض بمعبودات قريش وآلهتها التى لا تنفع ولا تضر ، والتنبيه على أن الإله الحق الذى يُفزع إليه في الشدائد ، وعند نزول المصائب ، هوالله وحده دون سواه ، وجَلَّ في علاه .

وهذه ترجمة لقوله تعالى:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (النحل ٥٣-٥٤) وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٦٧) ، وكأن النفس البشرية ، التي خالطها رجس الوثنية ، تحن إلى فطرتها الأولية ، وتعلم أنه

لا إله إلا إياه -سبحانه وتعالى - ومن ثم تلجأ إليه ولا تعتمد إلا عليه .

قوله : (عنا) جار ومجرور متعلق بـ (جزى) وكأن أبا طالب بذلك يكل أمره كله إلى الله تعالى ، ليدافع عنهم ويتولى عقوبة هؤلاء بما فعلوا في حقهم من قطع الأرحام ، وبتر وشائج القربى وروابط الألفة التى كانت بينهم .

و(عبدَ شمسٍ ونوفلاً) بطنان من عبد مناف بن قصي ، وكان له أربعة بنين : هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل ، أما بنو المطلب فكانوا مصافين لبنى هاشم ، ودخلوا معهم في الشعب ، وأما عبد شمس ونوفل فكانوا مخالفين لهم وموافقين قريشاً في معاداة بني هاشم ، ومِنْ ثَمَّ دعا عليهم أبو طالب بقوله : (جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا.... إلخ)[١]

وإضافة العقوبة إلى الشر في قوله : (عقوبة شر) وإن كانت العقوبة لا تكون إلا عليه ، لدفع توهم أن دعاءه عليهم كان على أمر خلاف الأولى ، أوعلى أمر دون مستوى الذنب أو العقوبة ، وتأكيداً على أن دعاءه هذا كان لفعلهم الشرَّ المحض ، الذي لا يشوبه خمود ولا يخالطه سكون أو ركود .

ثم نعت أمر العقوبة بقوله : (عاجلاً غير آجل) ، و(عاجلاً) بمعنى معجل لهم في دنياهم، ليروه واقعاً ملموساً ومشاهداً محسوساً، ليعلموا أن تلك العقوبة هي جزاؤهم على عداوتهم لرسول الله ﷺ

---

(١) غاية المطالب ١٢٣ بتصرف .

ولما كان المعَجَّلُ قد يشوبه شيء من التأخير من بعض جهاته دفـــع ذلك الفهم بقوله : (غير آجل) أى غير مؤجل لهـــم لأى ســـبب مـــن الأسباب ، مبالغة في عدم تأخره عنهم ، وتأكيداً على سرعة لحـــوق العقوبة بهم . تحقيقاً لأمرها ، ودفعاً للمجاز عنها ، وتأييداً لكونهـــا عاجلة الأثر ، وأنها غير مؤجلة بوجه من الوجـــوه ، لِيُبَشِّـــع فـــي نفوسهم أمر المقاطعة ، ويقبح لديهم أمر الحصار ، وضيعة الأخـــوة والجوار .

ولما دعا عليهم أبـــو طالـــب أن يعـــاقبوا علـــى حصـــارهم ومقاطعتهم بني هاشم عقاباً عاجلاً غير آجل ، كان ربما يتـــوهم أن هذه العقوبة قد تكون غير عادلة أو بها شئ من الجور أو الظلـــم ، ومن ثم دفع ذلك الوهم ورَدَّ هذا الفهم بقوله :

بميزانِ قِسطٍ لا يَخِيسُ شَعيرةً ... لـه شاهـد مِـنْ نَفسهِ غيرُ عائلِ

والباء التي صدر بها هذا البيت متعلقة بـــ(جزى) فـــي البيـــت السابق ، أي : جزاهم الله عنا ...بميزان قسط .

وإنما أضاف الميزان إلى القسط ؛ لينبه إلى أن الميزان لا يعتد به في ساحة التقاضى والفصل في احتياجات الناس إليه ، إلا إذا كان ميزاناً عادلاً لا يقوم على الجَوْر والظلم .

وكأنى بأبى طالب وهو يقول : (جَزَى اللهُ عنَّا عبـــدَ شـــمسٍ ونوفلاً ... بميزانِ قِسْطٍ) ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبيـــاء٤٧] ، وقولـــه تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن ٩] ، وإلى قول ابن أخيه ﷺ : " المُقْسِطونَ يوم القيامة على منابرَ مِـــنْ

نورٍ"[١] وكأن بالرجل شائبة من الإيمان بما أنزل الله وبما قال رسول الله ﷺ وليتهَا تَمَّتْ وكَمُلتْ واللهُ أعلمُ بحالِه .

وإنما خص أبو طالب إضافة الميزان إلى القسط دون العدل وإن كان معناه [٢] لأن "القسط هو العدل الظاهر ، ومنه سمى المكيال قسطاً ، والميزان قسطاً ؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً ، وقد يكون من العدل ما يخفى"[٣] وجهه ، ومِنْ ثَمَّ كان تخصيص القسط بالذكر ليشاهد هؤلاء القاطعون أرحامهم جزاء أعمالهم مرئياً ظاهراً ، كما كانت قطيعتهم وحصارهم لبنى أعمالهم على مرأى ومسمع من قريش والعرب ، فهذه بتلك ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف٤٩] .

قوله : (لا يَخِيْسُ شَعِيْرَةً) من خَسَّ يَخِسُّ إذا خَفَّ وَزْنُه فلم يعادل ما يقابله[٤] والشعيرة حبة من جنس الشعير المعروف ، والمعنى : لا يظلمون في ساحة التقاضى -على أعمالهم- بمقدار حبة من الشعير ، وفي هذا دلالة على العدل القائم في هذا الجزاء ؛ لأن قوله : (شعيرة) نكرة ، والنكرة إذا وقعت في سياق النفى -كما هنا- تدل على العموم والشمول[٥]

---

(١) صحيح ابن حبان ٣٣٦/١٠ تح/ شعيب الأرنؤوط -مؤسسة الرسالة - بيروت- الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
(٢) ينظر : اللسان ٢٧٧/٧
(٣) الفروق اللغوية ٤٢٨ .
(٤) المصباح المنير ١٦٩/١ .
(٥) ينظر : خصائص التراكيب ٢١٣

وفي نفى الأدنى (شعيرة) دلالة على نفي الأعلى من باب أولى، وفيه من الدلالة على تمام العدل ما لا يخفى .

والضمير في (له) من قوله : (له شاهد...) يعود على الميزان، والشاهد : اللسان ، ومنه قولهم : ما لفلان رُوَاءٌ لا شاهد ، أي ماله منظر ولا منطق [١]

وتقديم الجار والمجرور (له) على قوله : (شاهد) لإفادة الاختصاص ، وكأن هذا الميزان مختص بهذا الشاهد الذي يشهد بعدله وجوره ، ومن ثَمَّ أكده بقوله : (من نفسه) أي : من نفس الميزان ، ثم بين صفة هذا الشاهد بقوله : (غير عائل) أي : غير مائل ، يقال : عال الميزان فهو عائل أي : مال[٢]

وتمام معنى البيت : جزاهما الله -أي عبد شمس ونوفلا- طبق استحقاقهما ، فعليهما من الله ما يستحقان ، بلا زيادة ولا نقصان[٣]

ولا يغفل هنا تشبيه أبى طالب في هذين البيتين الصورة المعنوية (عقوبة شر) بشئ موزون ، فحذف المشبه به (أي المستعار منه) وهو الشيء الموزون ، وأومأ إلى (المستعار له) وهو الميزان ، فغدت عقوبة الشر مجسدة بالوزن ، حيث توزن بالميزان فلا تزيد ولا تنقص مقدار شعيرة ، وبهذا جسد أبو طالب الصورة المعنوية بالصورة المادية ، فأفعم الصورة بجمال الخيال ،

---

(١) مجمع الأمثال للنيسابورى ٢/٢٧٤ تح/ محمد محى الدين عبد الحميد -دار المعرفة -بيروت

(٢) مختار الصحاح ٤٦٧ .

(٣) طلبة الطالب ٥٨ بتصرف .

وإثراء الإيحاء الدال على الغضب والسخط من ظلم بعض بطون العشيرة وقطيعتها لبنى هاشم[١]

وبعد أن وبخ أبو طالب الذين تولوا كبر المقاطعة-من بني عبد شمس وبني نوفل- ودعا عليهم بأن يجازوا على ما فعلوا ما يستحقون ، ذكرهم هنا وذكر غيرهم بأن عراقة بني هاشم -الذين يحاصرون في الشعب - ضاربة بجذورها في تربة المجد ، وشامخة بفروعها في سماء العزة والشرف ، وأنهم خلاصة من سبقهم من الآباء والأجداد ، المشهود لهم بالسيادة والريادة فقال :

ونحنُ الصميمُ مِنْ ذُؤابةِ هاشمٍ ... وآلِ قُصَيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ

والصميم : خلاصة الشيء وما به قِوَامُه ... ومِنْ ثَمَّ يُقال للرجل : هومن صميم قومه ، أي من محض أصلهم ، ويوصف بالصميم الواحد والجمع[٢]

والتعبير بالضمير في قوله : (ونحن) لتقدم ذكرهم في سابق الأبيات ، والتعريف بالضمير هنا أبرز علو مكانة أبي طالب وقومه ، وبُعد منزلتهم عن أن يدانيها أو يقاربها أحد ، وكأنه بذلك يريد أن يقول لسامعيه ، نحن على ذكر وشهرة ورفعة ، سواء عرفنا بأسمائنا أم ناب الضمير عن ذكر أسماء ذواتنا ، و(أل) في قوله: (الصميم) دالة على الكمال في الوصف الكاشف عن عراقة الأصل وشرف الأرومة، وفخر الأبوة والأمومة .

---

(١) شعر أبي طالب دراسة أدبية الفصل الثامن ، ص٦

(٢) اللسان ٣٤٢/١٢

ولما أراد أن يبين منشأ هذا الأصل ، ومبدأ ذلك الفخر أتى بـ (من) البيانية سابقة على الاسم المنشود ، وصاحب الشرف المقصود فقال : (من ذؤابة هاشم) .

والذؤابة : الشعر المضفور من شعر الرأس ، وذؤابة الجبل: أعلاه ، ثم استعيرت للعزِّ والشرف والمرتبة العالية[١]

وكأنه بذلك يُعَرِّضُ بمن تواطؤا على حصارهم ، واتفقوا على قطع أرحامهم ، بأنهم أقل منهم منزلة ، وأدنى منهم رتبة ، فمن أين يكون لهم عليهم من سبيل ، وهم في ذروة المجد وقمة الفخر ؟ يتوارثون ذلك كابراً عن كابر .

وأضاف الذؤابة إلى هاشم –وهو جده الأعلى– لما له من منزلة سامية ، ودرجة رفيعة بين قومه ، حيث كان أعلاهم شأناً وأرفعهم قدراً ، وإذا كان كذلك ، كان بنو عبد المطلب من أعلى بني هاشم منزلة وأكرمهم حسباً ونسباً ؛ لأنهم أنجب أبناء لأكرم آباء .

ولم يقف الأمر بأبي طالب عند افتخاره بنفسه وبجده الأعلى – هاشم – بل مد حبلَ الفَخَارِ إلى جدِّ أبيه الأعلى وهو(قُصي) فقال : (وآلِ قُصَيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ)

و(الواو) التى عطف بها هذا الشطر من البيت تفيد مطلق الجمع بين شمائل ذؤابة هاشم وفضائل آل قصي ، "وقصي هو: ابن كلاب بن مرة ، واسمه زيد ، وكنيته أبو المغيرة، وسمى قصياً لأنَّ أمه ابتعدت به عن عشيرته في بلاد قضاعة "[٢]

---

(١) اللسان ٣٧٧/١

(٢) غاية المطالب ١٢٤

وإنما ذكر أبو طالب (آل) قصي ، دون (أهل) قُصيٍّ مثلا ؛ لأن كلمة الآل : يُخص بها الأشراف وذووا الأقدار بحسب الدين والدنيا[١] أما (الأهل) فهى تضاف إلى مَنْ كان شريفاً ومَنْ كان غيرَ ذلك[٢] ومِنْ ثَمَّ فهو يريد أن يقول :

نحن خلاصة أشراف وسادات أقوام ، من أقرب الآباء إلى أبعدهم نسباً ، والخطوب التى في قوله : (في الخُطوبِ الأوائلِ) جمع خَطْب ، وهو الأمر المهم والشأن العظيم ، والمراد بها هنا الأزمنة التي تقع فيها الخطوب ومدلهمات الأمور ، ونعت تلك الخطوب بقوله (الأوائل) ليكون المعنى على ذلك : إن مجدنا قديم ، وعزنا وشرفنا قديم جداً قدم الزمن الأول ، ومِنْ ثَمَّ لا يستطيع أن ينال منه حاسد أو يمحو آثاره ظالم[٣] .

---

(١) الفروق اللغوية : ٦ .
(٢) ينظر المفردات ٣٠
(٣) ينظر : طلبة الطالب ص٦١

سادسا : الافتقار إلى أهل النصرة مع مدح من سعوا في نقض الصحيفة .

لما وبخ أبو طالب بعض بطون عبد مناف الذين وافقوا قريشاً على مقاطعتهم بني هاشم ، عمم القول في افتقاره إلى أهل النصـــرة والتأييد ، ثم مدح الذين سعوا في نقض الصحيفة فقال :

وكلُّ صـديقٍ وابـنِ أخـتٍ نَعُـدُّه وَجَدنا لَعَمري غِبَّهُ غَيـرَ طائـلِ
سوى أنَّ رَهطاً من كلابِ بنِ مـرةٍ بَـرَاءٌ إلينـا مِـنْ مَعَقَّـةِ خَـاذِلِ
ونِعمَ ابنُ أختِ القومِ غَيرُ مُكَذَّبٍ زهيرٌ حُساماً مفـرداً مِـنْ حَمَائِـلِ
أشَمُّ من الشُّمِّ البَهاليـلِ يَنْتمـى إلى حَسَبٍ فى حَومَةِ المجدِ فَاضِلِ

وأول أبيات هذا السياق هوقوله :

وكلُّ صديقٍ وابنِ أختٍ نَعُدُّه وَجَدنا لَعَمرِي غِبَّهُ غَيرَ طائلِ

(وكل) التي صدر بها بيته هنا اسم دال على الإحاطة والشمول فيما أضيف إليه؛ لأنها من صيغ العموم ، والعموم هنا مبنـــي علـــى المبالغة والادعاء ، وليس على الحصر والاستقصـــاء بـــدليل البيـــت التالى الذي استثنى فيه بعضاً ممن كان له نصرة وتأييد لبنـــي عبـــد المطلب .

والصديق هو الصادق في المودة ، وقد جُعل في مرتبة القرابة -حيث ذكره مع ابن الأخت- لِمَا وَقَر في النفوس من محبة الصـــلة من الأصدقاء ، والتنكير فيه دال على التكثير ، وهو بذلك يشير إلـــى أن جملة الأصدقاء الذين كان يرجو منهم النصرة والمدافعة عنه ، قد خذلوه في هذا الموقف الشديد ، وذلك الأمر العصيب ، ثم أردف أبو طالب درجة أخرى أقرب من سابقتها ، كان الأمل معقوداً عليها فـــي الدفاع عن صلة الرحم وقرابة الدم فقال :

(وابنِ أُخْتٍ) وابنُ أُخت القوم : مَنْ وَلَدَتْهُ المرأة لغير رجل من أهلها ، والتنكير والتنوين في (أختٍ) دال على التكثير -أيضا- وكأن أبا طالب ينفي أن يكون لقربة الرحم دور في الدفاع والنصرة ، وأن يكون لأبناء الأخوات مع أخوالهم موقف يحسب لهم ، خاصة في الأزمات الملمة والكروب المدلهمة .

وقوله : (نَعُدُّه) أي : نهيئه [1] والتعبير بالمضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، وكأن أمر التهيئة والإعداد قد حدث مرة بعد أخرى ، ووقع حالاً بعد حال ، طمعاً في الوصول به إلى درجة البطولة التى يجود بها عندما يأتى يومها ، ولا شك أن التعبير بالمضارع -هنا- ينقل لك الحدث ، ويجعله ماثلا أمام عينيك ، وكأنك برجالات بني هاشم يهيئون أبناء أخواتهم ويعدونهم لكل كريهة عمياء ، أو غارة شعواء .

والتعبير بالماضي (وجدنا) دال على تحقق الوقوع ، وإيثار أبي طالب التعبير بـ (وجدنا) دون (رأينا) مثلا -مع استقامة الوزن بها- لأنه أراد أن يشعرك بمدى البحث والتنقيب الذي وقع من رجالات بني هاشم ، والطاقة التي بذلت في سبيل العثور على من ينصرهم من الأصدقاء وأبناء الأخوات ، ولكنهم في نهاية المطاف وجدوا الأمر على خلاف ما ينتظرون ، وهذا ما بينه قوله : (وجدنا لعمرى غبه غير طائل)

وكلمة (لعمرى) صيغة قسم ، واللام الداخلة على لفظ (عَمْر) لام القسم ، والعَمْر بفتح العين وسكون الميم أصله لغةٌ في العُمْر

---

(١) مختار الصحاح ٤٦٧

بضم العين ، ولكن خُصَّ المفتوح بصيغة القسم ؛ لخفته بالفتح ، لأن القسم كثير الدوران في الكلام ، وهو قسم بحياة المتكلم ، مرفوع على الابتداء محذوف الخبر وجوبا ، والتقدير : لعمرى قسمى أو يمينى [١]

والمراد بالغِبِّ في قوله : (وجدنا .... غِبَّه) أي : عاقبته[٢] ثم وسم هذا الغِبَّ بقوله : (غير طائل) أي ليس فيه غناء ونفع ومزية ، والمعنى على ذلك :

إن كل صديق وابن أخت كنا نعده للشدائد ، وجدنا عاقبته غير حميدة ، إذ لم يشد لنا أزرا ، ولم نلف منه نصرا[٣] .

لكنه عاد فاستثنى من جملة الذين تقاعسوا عن نصرتهم رهطاً من كلاب بن مرة فقال :

سوى أنَّ رَهطاً من كلابِ بنِ مرةٍ ... بَرَاءٌ إلينا مِنْ مَعَقَّةِ خَاذِلِ

وأكد هذا الاستثناء بـ(أن) الداخلة على اسم الجمع (رهطاً) ومراده من هذا التوكيد دفع ما قد يتوهم من أن هؤلاء الرهط قد سلكوا سبيل المقاطعين ، وركبوا صهوة المعاندين الكارهين ، والتنكير في (رهطاً) -هنا- يدل على التقليل في العدد ، وكأنه يريد أن يعلمك أن الذين وقع عليهم الاستثناء هنا ليسوا جماعة كثيرة يستطيع أن يتقوى بهم في مواجهة قريش وبطونها ، وإنما هم عدد قليل لا يتجاوزون العشرة ، ومِنْ ثَمَّ قيل : الرهط : الجماعة من

---

(١) ينظر : اللسان ٦٠١/٤
(٢) مختار الصحاح ٤٨٨
(٣) غاية المطالب ١٢٨

الثلاثة إلى العشرة [١] وإنما خص أبو طالب هاتيك الجماعة بكلمة (الرهط) دون الطائفة مثلا ؛ لأن الرهط : هم جماعة يرجعون في أصلهم إلى أب واحد [٢] أما الطائفة فهم جماعة من أخلاط الناس : قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة ١٢٢] .

ومن ثم بين أبو طالب أصل هذا الرهط بقوله (من كلاب بن مرة) وكلاب بن مرة هذا جدٌّ من الجدود العليا لأبي طالب ، وكأن هؤلاء الرهط هم مَنْ رَاعَوا صلة الرحم وقرابة الدم ، فأبوا أن يحطموا وشيجة القرابة على صخرات حقد تلك العصابة ، فنفضوا أيديهم من طاعتهم فيما أجمعوا على أمره ، وشقوا عصا الطاعة بمخالفتهم فيما تواطؤوا على فعله ، ومن هنا أكد أبو طالب هذا الأمر بقوله : (بَرَاءٌ إلينا مِنْ مَعَقَّةِ خَاذِلِ) و(براء) مصدر لـ (برئ) – كـ(سَمِعَ سَمَاعا) – يستوي فيه الواحد والاثنان والجماعة [٣] ، وهو هنا في موقع المسند من بناء الجملة ؛ إذ هو خبر لـ(أن) ، وإنما جاء على صورة المصدر ؛ للمبالغة في إثبات براءة هذا الرهط من إيذاء بني هاشم فقال : (براء إلينا) وهذا من باب التخصيص ، الذي يدل على أن هذا الرهط اختصوا بني هاشم بالسلامة من الأذى والمكروه ، فلم تلوث أيديهم بشئ من ذلك .

---

(١) ينظر : المفردات ٢٠٤

(٢) ينظر: الفروق اللغوية ٥٤٨ .

(٣) اللسان ٣١/١

وأضاف أبو طالب المعقة –وهي العقوق والإيذاء- إلى الخاذل وإن كانت البراءة من المعقة وحدها كافية في وسم هذا الرهط بكل خير ؛ لأن الخاذل هو الذي يترك نصرتك وعونك عند الحاجة إليه ، فإن أضيفت المعقة إليه ، كانت أشد وطأة مما سواها ، وإن برئ أحد من معقة الخاذل كان لما سوها أبرأ .

ولما استثنى من جملة الأصدقاء –الذين يمتون له بصلة- رهطاً من كلاب بن مرة ، استثنى كذلك من أبناء الأخوات بعضاً ممن سعى في نقض الصحيفة فقال مادحاً إياه :

وَنِعْمَ ابنُ أختِ القَوْمِ غَيْر مُكَذَّبٍ زهيرٌ حُساماً مفرداً مِنْ حَمَائِلِ

والواو التي ابتدأ بها أبو طالب هذا البيت أفادت مطلق الجمع بين رهط بني كلاب وزهير في سعيهم لنقض صحيفة قريش ، وزهير هذا هو ابن أبي أمية المخزومي ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب - أخت أبي طالب ، وهو- كما سبق - أحد الذين سعوا في نقض الصحيفة ، ومن ثم خصه أبو طالب بالمدح فقال : (ونعم ابن أخت القوم غير مكذب) وجملة (ونعم ابن أخت القوم) خبر مقدم ، وزهير المخصوص بالمدح مبتدأ مؤخر[1]وقدم أبو طالب المسند –وهو جملة : ونعم ابن أخت القوم - على المسند إليه للتشويق إلى ذكره ومعرفة من يكون ، فإنه لما قال : ونعم ابن أخت القوم... تطلعت النفوس وتشوقت لمعرفته وإدراك كنهه ، لأن في المسند ما يشعر بعظم أمره، وجليل شأنه ؛ لأنه : (نعم ابن أخت القوم) ، فإذا أتى المسند إليه وبان أمره ، وقيل : (زهير) وقع في النفس موقعاً حسناً ، وتمكن

---

(١) ينظر : غاية المطالب ١٢٩

فيها فضل تمكن . وقوله : (غيرَ مكذب) بالنصب حال من فاعل (نعم) وهو(ابنُ) و(مُكَذَّب) على صيغة اسم المفعول ، والحسام : السيف القاطع ، وهو منصوب على المدح لفعل محذوف أى يشبه حساماً مسلولاً في المضاء .

وفي اصطفاء أبى طالب نعت زهير بالحسام ، إشارة إلى أن هذا الرجل كان من أولئك الذين يصدعون بالحق ، ويمزقون أديم الباطل كما يمزق الحسام أديم الجسد ، وفي تنكير (حساماً) دلالة على عظمة هذا الرجل ورفعة قدره فى قومه .

وقد نعت أبو طالب هذا الحسام بقوله : (مفرداً) أي : مجرداً ، والحمائل : جمع حمالة وهي علاقة السيف [١]

وكأن زهيراً هذا عندما سعى في نقض الصحيفة ، ودعا إلى خروج بني هاشم من الشعب كان كالسيف الذي سُلَّ مِنْ غِمْده ، ومِنْ ثَّم قال أبو طالب :

(مُفرداً مِنْ حَمَائِلِ) ، وكان مقتضى النظم أن يقول : مفرداً مِنْ حِمَالةٍ؛ لأن السيف لا يكون في حمائل، وإنما في حمالة واحدة، ولكنه لما خالف جموع قريش وبطونها، وسعى إلى نقض الصحيفة وتمزيقها ، وتجرد مما أجمعوا أمرهم عليه ، كان كالسيف الذي جرد من عدة حمائل، وأفرد من سيوف القبائل، فلله دره ما أحسن بلاءه، وما أجمل قضاءه .

---

(١) خزانة الأدب ٢/٦٥

لأنه صادق في مودته لم يُلْفَ كاذباً فيهـا ، يصـدع بـالحق كالسيف القاطع ، ولا يخشى فيه لومة لائم[١] ومن ثم زاد أبو طالـب في نعته ، ومَدَّ حَبْـلَ مدحه فقال :

أَشَمُّ من الشُّمِّ البَهاليلِ يَنْتَمى ..... إلى حَسَبٍ فى حَوْمةِ المجدِ فَاضِلِ

والشَّمَم : ارتفاعٌ في قصبة الأنف مع استواء في أعلاه ، وهو مما يمدح به الرجل ، والأشَمُّ : السيد ذو الأنفة الكـريم ، والشُّـمُّ : جمعه[٢] ، والبهاليل جمع بُهْلول وهو الحَيِيُّ الكريم ، والجامع لكـل خير[٣]، وينتمي: ينتسب ، والحسب : مفاخر الآباء، وحومة الشئ : معظمه ، والمجد : الكرم والسيادة[٤] .

فقوله : (أشم) دليل على أن هذا الرجل ارتفـع عـن مجـاراة قريش في قطيعتها كارتفاع قصبة الأنف في أعلى الوجه علـى مـا سواها ، وسَمَا عَمَّا أجمعوا أمرهم عليه، وتعالى عن كـل خسيسـة ودنيئةٍ صدرت من قريش تجاه أخواله .

فلا شك إذاً أن يكون قوله : (أشم) كناية عن الرفعـة وعلـو القدر ، وشرف النفس التي تأبى الضيم والجور لمـن لا يسـتحق ، و(أشمُّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو أشم ، وإنما حذف المسـند إليه هنا لدلالة القرائن عليه ، إذ المقصود به (زهير) حيـث سـبق

---

(١) ينظر: السابق ٦٤/٢
(٢) مقاييس اللغة ١٧٥/٣
(٣) اللسان ٧١/١١
(٤) غاية المطالب ١٢٩

الحديث عنه ، ومن ثم استأنف أبو طالب هذا البيت بحذف المسند إليه اعتماداً على الذكر السابق ، كما قرر ذلك الإمام عبد القاهر[١]

ولعل وراء الحذف أمرا آخر "هو بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه ليقع السامع على مراد الكلام ، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال ، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير ، ويستفز حسك وملكاتك ، وكلما كان أقدر على تنشيط هذه القدرات كان أدخل في القلب ، وأمس بسرائر النفس المشغوفة دائما بالأشياء التي تومض ولا تَتَجَلّى ، وتَتَقَنَّع ولا تتبذل [٢] " ثم جلى أبو طالب رفعة شأن الرجل ، وعلو كعبه في ساحة الأنفة والعزة فقال : (من الشم البهاليل) أي إن هذه الأنفة وتلك الرفعة التي هو فيها إنما استمدها من أصوله ، وامتدت إليه من جذوره ، فهو يتوارثها كابراً عن كابراً ، وقد نعت أبو طالب هؤلاء الشم بأنهم بهاليل : أي جامعون لصفات الخير ، ومن الخير أن يترفعوا عن الضيم ، ويعلوا على الأهواء النفسية .

وفي نعته بأنه (من الشم البهاليل) عودة بأصل الرجل إلى عزته وأنفته التى تأبى عليه أن يضام غيره وهو قادر على دفع تلك المظلمة عنه .

والتعبير بالمضارع في قوله : (يَنْتمي) للدلالة على استحضار الصورة ، وكأن أبا طالب لما عبر بـ(ينتمي) دون (يُنْسَبُ) مثلاً كان ينظر إلى جذر المعنى في هذا الفعل ، إذ به شئ من النماء والزيادة ،

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ١٢٢
(٢) خصائص التراكيب : ١٦٠

والنماءُ والزيادةُ ارتفاعُ قَــدْرٍ مِنْ مرحلةٍ إلى أخرى ، وكأن ارتفــاع زهير عن موافقة قريش في حصارها أمر يتأتى من ارتفــاع نســب الرجل وعلو كعبه .

وانظر إلى القيد الذي جاء به أبو طالب في وصف حسب زهير ومفاخره ، حيث يقول : (يَنْتَمِي إلى حَسَبٍ في حَوْمَةِ المجدِ فَاضِلِ) ، فقوله (في حومة المجد) قيّد به انتماءه وفضله ، ولوقال : (ينتمــي إلى حسبٍ فاضلٍ) لكَــفَاهُ ، ولكنه قيد هذا الانتماء بأنه (في حومــة المجد) وكأنه بذلك يرفع قدر الرجل عن نظرائه ، ويعلى مــن شــأنه عن ضربائه ، لأنه إذا ظهر أمره ، وعلا شأنه في ســاحات الكــرم والسيادة كان لما سواها أظهر وأبين ، ولما عداها أعلى وأرفع .

سابعاً : المديح النبوى

يُعدُّ مديح أبي طالب للنبي-ﷺ- النواة الأولى لنشأة المديح النبوي ، حيث مدحه في وقت مبكر قبل غيره من الشعراء ، وهو ليس مديحاً مادياً لشخصيّة النبي ﷺ بقدر ما هو مديح لعظمة مكانته ، وجليل قدره ، وسمو رفعته ، بوصفه نبياً صاحب رسالة سماوية ، أرسل للناس كافة بدين الهدى ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور[1]

ومعلوم مما سبق أن أبا طالب لم يستوف مديح رسول الله –ﷺ– فيما مضى ، لأنه كان في معرض بيان حجته في الدفاع عنه ونصرته ، ولكنه وقف هنا مادحاً ومبيناً حبه وكلفه ووجده به ﷺ والإشادة بفضائله في حلمه ورشده وعدله وموالاته لله تعالى ، وبما اصطفاه الله بالتأييد والنصرة[2] فقال :

لَعَمْرِي لقدْ كُلِّفتُ وَجْداً بأحمدٍ ... وإخوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِّ المواصلِ
فلا زالَ فى الدنيا جَمالاً لأهلِها ... وَزيناً لِمَنْ وَلاّهُ ذَبَّ المَشَاكِلِ
فَمنْ مِثْلُه فى الناسِ أيُّ مُؤَمَّلٍ ... إذا قاسه الحكامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ ... يُوالِى إلهاً ليسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
فأَيَّدهُ رَبُّ العبادِ بِنَصْرِهِ ... وأظهرَ ديناً حَقُّه غيرُ نَاصِلِ
فواللهِ لولا أن أجيءَ بسُبَّةٍ ... تُجَرُّ على أشياخِنا فى القبائِلِ
لكنَّا اتَّبَعْنَاه عَلى كُلِّ حَالةٍ ... مِنَ الدَّهرِ جِداً غيرَ قولِ التَّهَازُلِ
لقد عَلِموا أنَّ ابنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدينا ولا يُعْنَى بقولِ الأَبَاطِلِ
فأصبحَ فينا أحمدُ فى أرومةٍ ... يُقَصِّر عنها سُورةُ المُتَطَاوِلِ
حَدَبْتُ بنفسى دُونَه و حَمَيْتُهُ ... ودافعتُ عنه بالذُّرَا والكَلاَكِلِ

---

(١) شعر أبي طالب دراسة أدبية : (المديح النبوي) صـ٩
(٢) شعر أبي طالب دراسه أدبية (الفصل الخامس) صـ١٠

وقد بدأ أبو طالب هذا المديح ببيان أن مديحه له -ﷺ- نـــابع من محبته له ، وكلفه به فقال :

لعَمْري لقـدْ كُلّفـتُ وَجْـداً بأحمـدٍ وإخْوَتِـــه دَأْبَ المُحِـــبِّ المواصـــلِ

وكلمة (لعمري) صيغة قسم ، وهي مبتـــدأ محـــذوف الخبـــر ووجوباً ، والتقدير : لعمري قسمي أو يميني ، و(اللام) السابقة على حرف التحقيق في قوله (لقد) هي لام التأكيد ، و(قد) حرف تحقيـــق وتأكيد ، والتعبير بالماضي في قوله : (كُلِّفْتُ) يدل على تحقق الوقوع وتأكيد الحدث ، واجتماع تلك المؤكدات في صدر البيت فيه دلالة على أهمية ما يأتي بعدها من خبر ، ومشعر بمدى ما فيـــه مـــن صـــدق الدعوى المقامة وتحريرها من شـــائبة الكـــذب. و(كُلِّفْــتُ) بالبنـــاء للمفعول والتشديد ، مبالغة في كَلِفْتُ به إذا أحببتُـــه وأُولعـــتُ بـــه[1] وانظر إلى بناء الفعل في قول أبي طالب (كُلِّفْتُ) وكيف جـــاء مبنيـــاً للمجهول مشدّداً ، وهذا يعني أن تلك المحبة التي أُشربت في قلب أبي طالب لابن أخيه ، وهذه المودة التي ملأت عليه فؤاده ، لا حول لأبي طالب فيها ولا قوة ، وإنما هو شيء كلفّه الله به ، وساقه إليه دون بقية أعمامه وعشيرته ، فهي محبة من عند الله محضة لا دخل لأبي طالب فيها ، وما ذاك إلا ليكون سيد قريش سيفاً يرد عن رسول الله أذاها ، ودرعاً يحوطه من مكرها وقلاها . ثم بين أبـــو طالـــب أي شيء قد كُلِّفه تجاه رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) ينظر: اللسان ٣٠٧/٩ .

(وَجْداً) بمعنى حباً شديداً [١] وهو مفعول مطلق لـ(كُلِّفْت) من غير لفظه وبابه، وقوله (بأحمد) متعلق بـ(كلفت) ، وأحمد اسم من أسماء النبي ﷺ وصُرف للضرورة الشعرية . وانظر إلى تدقيق أبي طالب في اصطفاء كلماته ، ولَبنات جمله ومفرداته، حيث اصطفى كلمة(أحمد) دون (محمد) ، وكأن الرجل يريد أن يعلم السامع أن تلك المودة التي أشربت في قلبه لابن أخيه دون أن يكون له دخل فيها ولا تكلف لها ، ينبغي أن يحمد الله عليها ، لأنه سبحانه اصطفاه لها دون غيره من بني هاشم ، وكأن لسان حاله يقول : لقد كُلِّفْت وجداً بأحمد ، وأنا أحمدُ هذا الأمر وأرتضيه ، ولا أتبرم من تبعاته ولا أأنف منه أبداً . والمراد بإخوته في قوله : (وإخوته) أولاد أبي طالب : جعفر ، وعلي ، وعقيل ، رضي الله عنهم ، وإنما سماهم (إخوته) لأن أبا طالب عم الرسول ﷺ والعم والد ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (البقرة ١٣٣) ، فجعلوا (إسماعيل) أبا ليعقوب مع أنه عمه . ومن ثم جاز أن يكون أولاد أبي طالب إخوة لرسول الله ﷺ ولعلك تدرك معي كيف أن أبا طالب قدم ذكر رسول الله ﷺ في المحبة والمودة على أبنائه الذين من صُلبه ، وما في ذلك من الدلالة الواضحة على أن الرسول -عليه الصلاة والسلام - عنده أحب إليه من أبنائه ، وحمايته والذّبّ عنه أولى عنده من حماية أولاده ، وكيف لا ؟ وهو الذي تولى رعايته صغيراً ، ورأى على يديه من الخير مالم يره من

---

(١) ينظر : اللسان ٣/٤٤٥ .

قَبْلُ على يد أحد سواه ، وتولى حمايته ونصرته كبيرا ، وتحمل مـــن أجله حصار قريش وكيدها ومكرها ، دون أن تلين له قناة ، أو يثنى عن نصرته والذب عن أذاه .

ثم بين أبو طالب أن تلك المحبة وهذه الكلفة قد أصبحت عنده عادة مألوفة وسجية ظاهرة معروفة فقال:(دأبَ المحـــبِّ المواصـــلِ) والدأبُ : العادة والملازمة[1] وهو مصدر لفعل محذوف على تقدير : دأبتُ دأب المحب المواصل ، وفي التعبير بالمصدر مـــا يـــدل علـــى التأكيد والثبات على تلك المحبة التي لا تنقطع بحال مـــن الأحـــوال ، ومِنْ ثَمّ لم يكتف أبو طالب بقوله (دأب المحب) وإنما نعته -إيغـــالاً- بقوله (المُوَاصِلِ) ، والمواصل : هو الذي يديم مواصلة من يحب ولا ينقطع عنه ، وفي ذلك من الدلالة على تأكيد تلـــك المحبـــة وثباتهـــا واتصالها ودوامها وعدم انقطاعها ما لا يخفى .

وبعدما بين أبو طالب أن محبته لرسول الله ﷺ محبة متمكنـــة من قلبه مالكة عليه فؤاده ، مقدمة على أبنائه ، أعقب ذلك بالـــدعاء له والثناء عليه فقال :

فـلا زالَ فـي الـدنيا جَمـالاً لأهلِهـا ... وَزيـنـــاً لِمَـــنْ وَالاهُ ذَبَّ الْمَشَـــاكِلِ

والفاء التي وضعها أبو طالب في أنف البيت هنا هـــي فـــاء التعقيب ، وكأنه بمجرد أن انتهى من ذكر محبته وكلفه به دعـــا لـــه بأن يكون جمالاً لأهل الدنيا فقـــال : فـــلا زَالَ فِـــي الـــدُّنْيَا جَمـــالاً لأَهْـــلِهَا....

---

(١) اللسان ٣٦٨/١ .

فقوله : (فلا زال في الدنيا ...إلخ) دعاء يتدفق من قلبٍ مُحبٍ دون كبحٍ ، ويسترسل دون توقف أو منع ، وكيف لا ؟ والمَدْعُو لـــه نور البصائر ، وهدى الله الذي إلى الخلق صائر ، وانظر إلى الدقـــة في اختيار الأحرف من شيخ البطحاء ، حيث قال: (فلا زال في الدنيا جمالاً...) دون أن يقول : فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها -مع استقامة الوزن مع اللام كما استقام (في) - وما ذاك إلا لأن النظم مع حرف الظرفية (في) يدل على تمكن الجمال من الدنيا بوجوده ﷺ فيها تمكناً يعم الدنيا وأهلها ، رحمة ونوراً وضياء للعالمين ، أما مع اللام (فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها) فيدل على اختصاص الدنيا بشيء من الجمال سرعان ما ينتقل إلى أهلها دون أن يكون هذا الجمال متمكناً منهـــا ، وفرق بين التمكن الذي يعم الدنيا وأهلها ، وبين الاختصـــاص الـــذي ينتقل منها إلى غيرها . ثم انظر إلى التنكير في قوله (جمالاً) وما يدل عليه من التكثير والعموم ، ليدخل تحته كل جمال حسي مـــن بهـــاء الصورة وحسن الطلعة وبشر اللقاء ، وكل جمال معنوي من حســـن الخُلُق ونقاء السريرة والمودة والمحبة ومكارم الأخلاق ، وصـــنائع المعروف التي طوق بها رسول اللهﷺ عنق الدنيا وأهلها . ثم انظـــر إلى التنكير الآخر في قوله (وزيناً) وما يفيده من الكثرة ؛ لينضـــوي تحته كل شيء يُتزين به ، ويحلو في عين الرائي ووَلَّـــاهُ: بمعنـــى فوض إليه ، وذَبُّ المشاكل : دفع المشاكل بحلها ، والمشكلة : هـــي ما يلتبس وجه الصواب فيها أو طريق تلافيها[١]

---

(١) ينظر : اللسان ٣٥٦/١١

ولعلك تتابع معي دقة أبي طالب في اصطفاء لبنات المفردات ، حيث جعل رسول الله جمالاً للدنيا وأهلها على وجه العموم ، وزيناً لمن فوض إليه دفع المشكلات ، وما ذاك إلا لأن الجمال هو الحسن المطلق سواء أكان في الفعل أو القول أو الخُلق ، ومن ثم استحق أن يكون ﷺ جمالاً للدنيا وأهلها ، لأنه اكتملت فيه كل صفات الحسن ومقومات الجمال ﷺ بصورة لم تكن لأحد من قبله وليست لأحد من بعده . أما كونه (زيناً) فهو مختص بمن فوض إليه دفع المشكلات وحل العويصات ، وكأن الذي يفوضه في حل مشاكله يتزين بهذا التفويض ، ويكون كأنه قُلِّد ياقوتة نفيسة لا تكون عند أحد سواه ، وكيف لا ؟ والمصطفى هو المتصدر لحل كل عويصة تلقاه ، أو مشكلة تعرض له في دنياه . ولا يخفى على المتأمل هنا أن قوله "زينا" إنما هو من ذكر الخاص بعد العام ، حيث إن الزين فرع من الجمال العام المذكور في قوله: "فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها" والمراد من هذا الذكر أن يكون لمن فوض إليه ذب المشاكل قبسان من الحبيب المصطفى : قبس من جماله الذي عم الدنيا وأهلها ، - وهو بلا شك واحد من أهلها- وقبس حين خصه بدفع مشاكله وحَلِّ عوائصه .

وبعد أن جعل أبو طالب ابن أخيه جمالاً لأهل الدنيا وزيناً لمن فوض إليه دفع مشاكله ، استفهم عن وجود من يماثله في دنيا الناس فقال :

فَمنْ مِثْلُه فى الناسِ أيُّ مُؤَمَّلٍ ... إذا قَاسه الحكامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ

(فمن مثله) مبتدأ وخبر ، والاستفهام فى قوله:٠ (فمن مثله فى الناس) استفهام إنكارى يؤول إلى معنى النفى ، والتقدير : ليس فى الناس مَنْ يماثله خَلْقا وخُلقا وحسباَ ونسباَ وطهارة ونقاء وفضلاً وعزة وكرامة ، وما شئت من هاتيك الكلمات التى تؤدى لــك معنــى الشرف والعزة والجاه ، ولله دَرُّ القائل :

فَمَبْلغُ العِلمِ فيه أنّــه بَشَرٌ   وأنّــه خيــرُ خَلقِ اللهِ كلّهِم [1]

و (أل) فى قوله (الناس) أراها تردد معــى بــين العهديــة والجنسية ، فعلى العهدية يكون المراد من (الناس) الكَمَلَةُ مــنهم ، وأهل الفضل والريادة ، ومع ذلك ينكر أبو طالب أن يكون فيهم مــن يماثله ويحاكيه فى صفاته وفضله .

أما إن كانت (أل) فى الناس للجنسية ، فالمراد مــن النــاس جنس البشر جميعاً ، عربهم وعجمهم ، وهو بلا شك يعلو كعبة فــى ساحة التفاضل على هامات الخلق بما آتاه رَبُّ العبــاد مــن الفضــل والحق .

ولعلك تتابع معى انتقاء أبى طالب لدلالات حروفه ، حيث قال: (فمن مثله فى الناس)، دون أن يقول مثلاً: من الناس ، وما ذاك إلا لأن التعبير بحرف الظرفية يدل على أن البحث عمن يماثله كأنه واقع فى ذوات الناس وشخوصهم ، فهو بهذه الظرفية يجعل الناس محــلاً للبحث وظرفاً للتنقيب عمن تكون له المماثلة مع هذا النبى الكــريم ،

---

(١) ديوان البوصيرى ٢٤٢ ، تح/ محمد ســيد كيلانــى – مطبعــة مصطفى البابى الحلبى – مصر .

وأنى لمن مدحه رب العباد بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم آية ٤] أن يكون له فى دنيا الناس من نظير أو شبيه أو مثيل ؟

ولا يتأتى مثل ذلك مع الحرف (من) لو قال: مـن النـاس ، سواء أكانت دلالتها على ابتداء الغاية أو للتبعيض .

قوله (أىّ مؤملٍ) : المؤمَّلُ: هو الذى يرجى لكل خير ويسارع ، ويكون مبتغاً فيه طريق الشارع ، وأى مؤمل: استفهام إنكـارى – آخر – آل إلى معنى النفى كالإنكار السابق ، أى: ليس مؤمل مثله فى إيراد الخير ودفع ضرر الغير ، وقد جاء هـذا الاسـتفهام الإنكـارى تأكيداً على أمر الإنكار السابق [١] ، ليؤكد أبو طالب إنكاره أن يكون فى دنيا الناس من يماثل ابن أخيه – ﷺ – أو يحاكيه فى شـئ مـن صفاته ويدانيه ، وليؤكد أيضاً على أنه لا يوجد مؤمل مثله فى جلب الخير ودفع الضر ، وأنى لمن منحه الله شرعه وهداه أن يوجد مـن يماثله فيما بين يديه من الخير والهدى والبر والتقى .

والحُكَّامُ فى قوله: (إذا قاسهُ الحكام عند التفاضل) جمع حـاكم، والتفاضل التغالب بالفضل والخير [٢] .

والمراد بتلك المقايسة : النظر بينه وبين غيره فـى التغالـب بالفضل والخير ، ومما يحسب لأبى طالب فى انتقاء المفـردات أنـه استخدم (إذا) دون (إن) ليدل على التحقق والتأكيد علـى وقـوع مثل هذا الأمر ، وأنه كان يقع فى المفاخرات والتبـاهى بالأحسـاب

---

(١) ينظر: طلبة الطالب ٧٤ .
(٢) غاية المطالب ١٣٠ .

والأنساب ، كما فعل أبو طالب فى زواجه ﷺ من السيدة خديجة ، حيث ذكر من فضائله وشمائله ما لم يكن إلى إنكاره من سبيل .

فاستخدامه (إذا) دون (إن) " من البراعة فى توزيع المعانى على وقف المقاصد ؛ لأن (إن) الشرطية لا تأتى فى كلامهم إلا فى الأمر القليل النادر " (١) لأنها تدل على شئ من الشك – غالباً – وعدم الجزم بالتلازم والترابط بين الشرط وجوابه .

ومما يحسب لأبى طالب أيضاً استخدامه الفعل الماضى (قاسه) الذى يدل على تحقق وقوع تلك المفاضلة بين رسول الله ومن سواه، ثم استخدامه كذلك لكلمة (الحكام) دون (الحاكمون) لأن الوزن الذى اصطفاه فى إجراء هذه الصفة هو (فُعَّال) وهويدل على أن هؤلاء صاروا صيارفة فى نقد الرجال ، وأهل صنعة وحرفة فى التمييز بين أهل الفضل ومن سواهم ، كما يقال: قُرَّاء جمعُ قارئ ، وزُرّاع جمع زارع .

ومن ثَمَّ ، فإنَّ اصطفاء أبى طالب لكلمة (الحُكام) الذين بلغوا من الصنعة والحرفة فى التمييز بين الناس مبلغاً لا يدانيهم فيه أحد ، يتناسب مع قدر رسول الله ﷺ الذى بلغ من الكمال والجلال والجمال المبلغ الذى لا يدانيه فيه أحد ، كما لا يدانى الحكام فى صنعتهم وحكمهم أحد ، ومن هنا جاء كلٌ على ما يجب ويتناسب .

وكأن أبا طالب لما قال:

فَمَنْ مِثْلُهُ فى الناسِ أىُّ مُؤَمَّلِ ... إذا قَاسَهُ الحُكَّامُ عندَ التَّفَاضُلِ

---

(١) الشعر الجاهلى ٣٦ .

أثار هذا القول فى خبيئة السامعين وسريرتهم سؤالاً مؤداه:

لماذا لا يكون له فى دنيا الناس مثل أو نظير ؟ فجاء قوله:

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ ... يُوالى إلهاً ليسَ عَنْهُ بِغَافِلِ

إجابة على هذا السؤال المقدر ، ومن هنا ترك أبو طالب العطف بين هذا البيت وسابقه لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، لأن الجواب لا يعطف على السؤال – كما هو معلوم ومقرر –

والطيش : خفة العقل ، وكونه غير طائش أى غير خفيف العقل ، بل رزين أصيل الرأى (١) .

وقوله (حليم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو حليم ، وقد حذف المسند إليه من بناء الجملة لقوة الدلالة عليه ، وجرياً على عادة العرب فى ذلك ، حيث تقدم ذكره من قبل ، وهو كما ترى حَذْفٌ وقع فى استئنافِ جزءٍ من أجزاء المعنى ، ذكر فيه أبوطالب خلائق مهمة لهذا النبى الكريم من حلم ورشد وعدل ... إلخ .

وواضح أن القطع هنا وعدم الوصل وقع عند منقطع مهم جداً فى شمائل هذا النبى الكريم ، فقد جعله " جمالاً لأهل الدنيا ... وزيناً لمن فوضه فى حلِّ مشاكله .... ثم سأل عمن يماثله فى دنيا الناس ... ثم أنكر أن يكون له ندٌّ ومِثْلٌ إذا نظر الحكام بينه وبين غيره فى التغالب فى الفضل ، والذى أبرز اهتمام أبى طالب بهذا الجزء المهم من المعنى هو بناؤه على القطع – كما سبق – وكأن قوله: (حليم

---

(١) ينظر: اللسان ٣١٢/٦ .

رشيد عادل غير طائش) ، ليس من جنس سابقه ، وإنما هى صفات قائمة بذاتها فيه ، ولا يوجد أحد فى بلوغ كمالها يدانيه .

وغير خافٍ أن التنكير فى قوله: (حليم رشيد عادل غير طائش) يفيد تعظيم هاتيك الصفات وإبرازها فى ثوب الحسن والكمال ، بحيث سمت فيه على كل صفة كانت فى أعيان الرجال ، وكملت فى ذاته دون أن تكتمل فى أحد – من قبله أو بعده – من أرباب الصبا والاكتهال ، فأخذ منها بحظ وافر ، وشهد له بها البادى والحاضر .

وقد نعت أبو طالب ابن أخيه – ﷺ – بصفات متعددة وهى:

(حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلهاً) ومما يلاحظ على هذه الصفات أنه أوردها مفصولة بعضها عن بعض دون أن يكون بينها من عاطف ، ولعل ذلك يرجع إلى أنها كلها تندرج تحت تناسب واحد وتحت ممدوح واحد هوﷺ ليدل بذلك على كمالها فيه ، وأن كل صفة منها قائمة بذاتها مكتملة فيه ﷺ وبحيث لا تحتاج إلى ما يقويها ، أو يُعلى من شأنها ، أو يرفع درجة اكتمالها فيه .

بل – على العكس من ذلك – فلو أتيح لهذه الصفات أن تتكلم لنطقت بملئ فيها وقالت: إنما أصابنا الكمال والشرف والرفعة بالتحاقنا بصفاته ﷺ وبكوننا فى قافلة أخلاقه وشيمه ، فذالك شرف لا يدانيه شرف أو عزة ، وفخر لا يطاوله افتخار .

ثم انظر كيف جاء بالفعل المضارع فى قوله (يوالى) وما يدل به على التجدد والحدوث والاستمرار فى اتخاذ ابن أخيه – ﷺ – الله سبحانه ولياً ينصره ويؤيده ويدفع عنه كيد الكائدين ، ومكر الماكرين

، وما يتبع ذلك من قدرة هذا الفعل على نقل الحدث وتصويره ، وجعله كأنه ماثل بين يدى السامع ، وكأنه يراه – ﷺ – وهو يناجى ربه ويدعوه ويسأله العون على هؤلاء المتغطرسين ، وسادات مكة الماكرين .

وقد نكر أبو طالب صفة الألوهية فى قوله: (يوالى إلهاً) وتنكيرها هنا – بلا شك – للتعظيم والتفخيم من شأنها ، وكأنه بذلك يشهر فى وجوه القوم سيف القدرة الإلهية العظيمة التى تتولى حماية ابن أخيه والذبّ عنه وإحاطته ورعايته بكل مالها من نفاذ وسطوة وقوة ، فأنَّى لهم بعد ذلك أن ينالوا منه أو أن يكون لهم عليه من سبيل .

وزيادة فى هذه الإحاطة وتلك الرعاية نعت أبو طالب المولى سبحانه بقوله : (ليس عنه بغافل) وكان له أن يقول – خارج النظم – ليس عنه غافلاً ، ويستقيم المعنى على ذلك ، ولكنه لما أراد زيادة التأكيد على كون الحق سبحانه غير غافل عن ابن أخيه ، وأنه منه فى عين العناية ولبِّ الرعاية ، جاء بهذه (الباء) الداخلة على الخبر المنفى تأكيداً لهذا الشأن ، وكأنه بذلك يلقى باليأس فى حجورهم ، ليعلموا أن الله لا يمكنهم من النيل من ابن أخيه ؛ لأنه ليس بغافل عنه أولاً ، وعما يدبرون ثانياً، وهو بذلك يصفع وجوه القرشيين الذين يتخذون من دون الله آلهة يعبدونها ، وهى لا تعلم عن عبادتهم أو دعائهم أو توسلاتهم شيئاً ، وكأنه يقول لهم: إن هناك فرقاً بين من يعبده محمد ﷺ وبين ما تعبدون من آلهة صماء بكماء عمياء لا تعرف الأرض من السماء ، ومن ثم كان مقتضى حالهم وهم على

ذلك أن يؤكد لهم عدم الغفلة بتلك (الباء) دفعاً لما قد يتوهمه البعض منهم من أن إله محمد كآلهتهم التى تغفل عما يعملون ويقولــون ولا تعلم ما يسرون وما يعلنون .

قوله:

فَأَيَّدهُ رَبُّ العبادِ بِنَصْرِه ... وأظهرَ ديناً حَقُّه غيرُ نَاصِل

الفاء التى جاءت فى أنف البيت هنا هى فاء التعقيب ، وهــى غنية وثرية بما وراءها من دلالة ، حيث تفيد أنه ﷺ ما إن اتخذ الله سبحانه ولياً له من دون الناس إلا وأيده الله بالنصر والغلبـــة ، وأن التأييد منه سبحانه موصول باتخاذه ولياً وناصراً ، وهذه الفاء كــان من الممكن الاستغناء عنها بالواو ، وكان لأبى طالب أن يقول: وأيّده رب العباد بنصره ... – ويستقيم وزن البيت على ذلك – ولكن النظم بــ (الفاء) جعل المعانى ينضم ثانيها إلى أولها ، ويبنى لاحقها على سابقها " فتضامت وتلاصقت وتداخلت وتشابكت حتى صــارت شــيئاً واحداً لا تجد فيها فراغاً تدخل فيه كلاما " [١] .

والتعبير بالماصى هنا (فأيدهُ) من باب التعبير بالماضى عــن المستقبل ، حيث إن التأييد الذى أراده أبو طالب لم يقع بعد ، كيــف وهم محاصرون فى الشعب ولا يجدون ما يقتاتون به ؟ ولكن الرجل لما كان على يقين من صدق دعوة ابن أخيــه وتأييــد الله لـــه فـــى مستقبل أيامه ، عَبَّر عن ذلك بالماضى فقال: " فأيده " قصداً لتحقيق

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى ١٣٣ ، ١٣٤ .

الخبر ، وكأن أمر التأييد شأن مفروغ منه ، وفى ذلك بشارة له لما سيكون له فى مستقبل أيامه من الغلبة والنصر على قريش وحلفائها.

وفى ذكر لفظ الربوبية " رَبُّ العباد " دلالة على معنى الرعاية والعناية ، وتلك من مقتضيات الولاية التى فى قوله " يوالى إلهاً " إذ الموالاة تقتضى العناية والتلطف والرعاية ، وفى ذلك دلالة على تعانق أجزاء الكلام بعضه مع بعض ، وتداخل معانيه وتناسلها ، وارتباط اللاحق منها بالسابق .

وأضاف أبو طالب الربوبية إلى العباد دون أن يقول: (رب الناس) – وإن كانت أعم – لأن فى لفظ العبادة إشارة إلى معنى العبودية التى من مقتضاها التذلل والخضوع والانكسار ، وكأن اللفظة تعودُ بنا إلى الموالاة فى قوله " يوالى إلها " وتتناسل منها وتتوالد ، لتدل على أن التلطف والعناية والرعاية التى تكمن فى لفظ الربوبية ، إنما هى لمن عبد وخضع وتذلل لله سبحانه ، لا من طغى وتكبر وتسلط وتجبر وقال: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر ٢٤] والتنكير الذى فى قوله (بنصره) يحمل معنى التكثير ؛ ليشمل النصر بالغلبة فى ساحات القتال والنزال ، والنصر بالحجة والبينة الدامغة لمن يعارضون الإسلام وينكرونه .

قوله " وأظهر ديناً ... " التعبير بالماضى فى قوله " وأظهر " له من الدلالة ما كان فى " أيد " من التعبير بالماضى عن المستقبل للدلالة على تحقق الأمر وثبوته يوماً ما ...

وجاء لفظ (ديناً) نكرة فى سياق الإثبات الخبرى ليخلع عليه صفة العموم والشمول ، وكأنه أراد من وراء ذلك أن يقول لأهل مكة

: إن ما جاء به ابن أخى إنما هو دين يظهر على الدنيا كلها ، ويعم أركانها وأرجاءها ، ويمحو ما سواه مما دانت به العرب من شرك ووثنية وعبادة لغير الله ، فهو الدين الباقى وغيره إلى زوال ، ومن ثم أكدّ هذا المعنى بقوله: (حَقُّهُ غَيْرُ نَاصِلِ) أى: وجوبه وثباته (١) غير زائل أو مضمحل (٢) ، وفى ذلك من الدلالة على كمال هذا الدين ، وتفخيمه وتنزهه عن كل نقص يشوب ما دانت به العرب فى جاهليتهم مالا يخفى أمره – كما هو بَيّن – .

ولما أخبر أبو طالب بأن الله سيؤيد هذا النبى على مَنْ عاداه ، وسيظهر دينه على ما سواه أقسم هنا بأنه لولا حذار الشغب من قريش ، وخوف الفتنة التى تستوجب المسبة عندهم ، لأظهر ما يدعو إليه ابن أخيه وبَيّنه على رؤوس الأشهاد(٣) فقال:

فـو اللهِ لَـوْلا أنْ أجِـئَ بِسُـبَّةٍ ∴ تُجَـرُّ علـى أشْـياخِنا فـى القَبائِـلِ
لكنّـا اتَّبَعْنـاه عَـلـى كـُلِّ حَالـةٍ ∴ مِنَ الدَّهْرِ جِداً غَيرَ قَـوْلِ التَّهازُلِ

وقد ابتدأ أبو طالب كلامه هنا بالقسم بلفظ الجلالة (فـوالله) " ليستفز عقل السامع ويوقظ فى نفسه جلال الحق، وجلال وحدانيته سبحانه، ويشعرنا أنه يستحصر من نفسه كل المعانى التى فى (الله)"(٤) من مهابة وجلال وعظمة لا يجابهها أحد ولا ينكر عظمتها مخلوق ، وقد كان العرب يؤمنون بوجود الله ، ولكن كانوا يشركون غيره فى عبادته ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر٣].

---

(١) ينظر: مختار الصحاح ١٦٧ .
(٢) ينظر: اللسان ٦٦٢/١١ .
(٣) شعر أبى طالب ، دراسة أدبية ، الفصل الأول ، ص ١٣ .
(٤) شرح أحاديث من صحيح البخارى ١٥٦ .

و(لولا) حرف امتناع لوجود ، أى حرف يدل علـــى امتنـــاع جوابه ، أى انتفائه لأجل وجود شرطه [١] ، وقد امتنع الجواب هنـــا وهو قوله : (لكنا اتبعناه) لوجود الشرط السابق عليه وهو قوله: (أن أجئ بسُبَّة) .

وقوله: (أن أجئ) فى تأويل مصدر تقديره: فوالله لولا مجيئ بسبة ، و(الباء) فى قوله: (بسبة) للمصاحبة ، وكأنك بهذه الدلالـــة ترى أبا طالب وهو يتأبط تلك السبة ويرافق هذه المسرة حال إعلانه الإيمان بهذا الدين الجديد – وهذا ما يظهر من قول الرجل ،والله يعلم ما يسر وما يعلن – ثم بين أن هذه السبة وتلك المعرة لا يوسم بهـــا وحده ، وإنما هى تنسحب على من سبقه من طاهر الآباء فقال:

تُجَرّ على أشياخِنا فى القَبائلِ

و(تُجر) صفة لـــ (سبة) من قولهم: جَرَّ عليهم جريـــرةً أى جنى عليهم جناية يؤاخذون بها [٢] والتعبيـــر بالمضـــارع (تجـــر) للدلالة على التجدد والاستمرار لهذه السبة وتلك الجناية التى فعلهـــا أبو طالب فى قومه .

وفى بناء الفعل للمجهول (تُجرُّ) إما لكون الفاعل معلومـــاً ، حيث لا يقع ذلك إلا من قريش الرافضين لهذا الدين المحاولين منعـــه وظهوره ، وإما إشارة إلى سرعة انتشار هذه السبة وتلك المعرة فى سيرة آبائه حتى لكأنها تُجَرُّ وحـــدها ، وتنتشـــر بنفســـها ، دون أن يبعثها باعث أو يدفعها دافع ، و(على) هنا للاســـتعلاء المجـــازى

---

(١) ينظر: حروف المعانى للزجاجى ٤ .
(٢) مختار الصحاح ١١٩ .

بمعنى التمكن ، أى إن هذه السبة التى تلحق أباءه من جراء إيمانه بابن أخيه ، تتمكن منهم وتلاحقهم فى دروب الأنساب وساحات التاريخ ، حتى إنها لتعلو على كل فضل لهم ، وتسمو على كل شرف وحسب كانوا يتيهون به على مَن سواهم ، وأشياخه هنا هم آباؤه ، والمفرد شيخ [١] .

والتعبير بحرف الظرفية (فى) من قوله : (فى القبائل) للظرفية المجازية ، وهى دالة على تمكن وانتشار هذه السبة وتلك المعرة بين القبائل العربية ، عامتها وخاصتها .

وقوله: (لكُنّا اتبعناه) جواب للقسم الذى فى قوله: (فوالله لولا أن أجئ بسبة)

والتعبير بالماضى فى قوله : (اتبعناه) يدل إرادة تحقيق الفعل وتأكيده ، حيث المقام مقام اطمئنان نفسى لما جاء به ابن أخيه من شرع ومن عمل ، ومن ثم كان تأكيد القول بالماضى " اتبعناه " أدل على مراد النفس من تركه دون تأكيد .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب أسند الاتباع إلى " نا " الفاعلين فقال: اتبعناه ، ولم يقل: لاتبعتُه بالإفراد كما قال قبل ذلك : أن أجئ – بإسناد المجئ إلى نفسه – ولعله أراد من التعبير بالجمع هنا أن يبين أن اتباع ابن أخيه لَوْتَمَّ – دون سبة من القوم – ليكونَنَّ من جميع بنى هاشم المحاصرين فى الشعب ، دون أن يتخلف واحد منهم عن تلبية دعواه ، أو السير فى طريق هداه .

---

(١) اللسان ٣/٣١ .

وقوله (على كل حالة) على تقدير مضاف صفة لمصدر محذوف أى: اتبعناه اتباعاً كائناً على كل حالة ، والمراد بقوله: (على كل حالة) بيان لوقوع الاتباع منهم قطعاً ، لأن الدهر لا يخلو عن وقوع حالة فيه ، وقوله: (من الدهر) بتقدير مضاف – كذلك – أى على كل حالة من أحوال الدهر [١] .

والذى يشعر به قوله: (لكُنَّا اتَّبَعْنَاه على كُلِّ حالةٍ مَنَ الدهرِ) أن هذا الاتباع – إن قدر وكان – لا يقف فى طريقه أحد ، ولا يعوقه مانع أو حائل من زمان أو مكان ، بل يكون جرياً فى عنانه ﷺ وسبقاً إلى طاعته وإحسانه ، فعما قليل يصير الظن يقينا والشك عرفانا ، ويتكشف ثوب الظلمة عن النور ، وتستبين حقائق الأمور ، ويُعرف أهل الحق من أهل الزور .

وقوله (جداً) مفعول لفعل محذوف تقديره: أجدُّ جداً فى قولى ، وكأنه يقول: لا سبيل إلى الهزل ولا ميل إلى غير الجد ، كيف والأمر يتعلق بنبىٍّ ورسالة ، وليس برأىٍ فى فصيح مقالة ؟ ومَنْ ثَمَّ أكد هذا الجد بقوله: (غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ) .

والتهازل: من الهزل ؛ لأن تَفَاعل يأتى بمعنى فَعَل كـ(توانى) بمعنى (وَنى) لكنه أبلغ من المجرد [٢] .

و(غير قول التهازل) صفة لـ (جداً) والمراد بهذه الصفة تأكيد القول فى جدية ما سبق من أمر الاتباع والانقياد والانصياع لهذا النبى الكريم ، وعدم التخلف عن سلوك طريقته ، واتباع سنته .

---

(١) طلبة الطالب ٧٦ بتصرف .
(٢) ينظر: خزانة الأدب ٥٦/٢ .

ثم بين أبو طالب مكانة هذا النبى وما اشتهر به بين الخاصة والعامة من الصدق فيما يحدث به وعدم الكذب لا فى جدٍ وفى هزل فقال:

لقد عَلموا أنَّ ابنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدينا ولا يُعْنى بقولِ الأَباطلِ

و(اللام) التى افتتح بها أبو طالب بيته هذا يجوز أن تكون لام القسم ، وهى اللام التى من شأنها أن تدخل على جواب القسم لربطه بالقسم المحذوف – أى والله لقد علموا – وحذف القسم فى مثل هذا يقع كثيراً استغناءً بدلالة الجواب عليه دلالة إلزامية ؛ لأنه لا ينتظم جواب بدون مجاب ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام الابتداء ، وهى تفيد تأكيد القسم ، ويكثر دخولها فى صدر الكلام– كما هو معلوم [١] .

ثم هى بعد ذلك دليل على أن ما يأتى بعدها خبر ذوشأن يحتاج إلى لفت الأذهان إليه وإصغائها إلى ما يأتى بعدها ، للتأكيد على ما يتلوها من خبر وما يعقبها من بيان وإلا فقد كان من الممكن أن يقول أبو طالب: (وقد علموا أن ابننا لا مكذب) ، ويستقيم الوزن على ذلك ، ولكنه بهذه اللام لفت الأذهان إلى أهمية ما يأتى بعدها من خبر ، وقد أتبع هذا التأكيد بأكثر من مؤكد ، حيث أدخل هذه (اللام) على حرف التحقيق (قد) فقال: (لقد علموا) تأكيداً للكلام الآتى ليخْلُصَ من ذلك إلى اليقين له دون الشك فيه ، ثم أدخل حرف التحقيق(قد) على الفعل الماضى : (علموا) الذى يدل على تحقق وقوع العلم

---

(١) ينظر: شرح الرضى على الكافية ٣١٥/٤ / جامعة قار يونس ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

منهم من أن النبى صادق فيما يقول ، ثم جاءت (أنَّ) لتضاعف ما سبقها من مؤكدات وتُبين يقينه فى أنَّ (ابنَنَا لا مُكَّذَبٌ لدينا) .

ومما يلاحظ هنا أن أبا طالب أكد هذا الخبر بأكثر من مؤكد ، وكان مقتضى سياق الكلام أن يجئ هذا الخبر غير مؤكد ؛ لأن قريشاً تعلم علم اليقين أن محمداً – ﷺ – لا يُعرف عنه الكذب ، بل شُهر فيهم بأنه الصادق الأمين ، ولكن لَمّا بَدَا من قريش أمارات الإنكار ، وعلامات التكذيب وعدم التصديق بتلك الدعوة المحمدية ، أخرج لهم أبو طالب هذا الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد ، تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له .

ومما يلاحظ – كذلك – أن أبا طالب استخدم أسلوب الالتفات فى قوله: (علموا) وكان مقتضى النظم أن يقول: (لقد علمتم) ، ولكنه التفت من الخطاب إلى الغيبة ليشعر أن أمر العلم بصدق ابن أخيه قد تعدى قريشاً إلى ما سواها ، فعلمت قريش أنه صادق وعلم غيرها كذلك ، فلا مجال للتكذيب ولا سبيل إلى الإنكار .

وقد أراد بقوله: (ابننا) رسول الله ﷺ ولكنه هنا لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (أنَّ ابنى لا مُكَّذبٌ) ، وإنما أضافه إلى جموع بنى هاشم فقال : (ابننا) ليبعث فى نفوس القوم أن (محمداً) ليس ابناً لأبى طالب فقط ، يدافع عنه ويحميه ويذود عن حياضه ، وإنما هو ابن لكل بنى هاشم ، ومن ثَمّ يكون أمر الدفاع عنه وحمايته موكولاً لبنى هاشم قاطبة – وهم سادات قريش – فمن أين لغيرهم التعرض له بأذى أو إصابته بمكروه .

وقوله (ولا يُعنى بقولِ الأباطلِ) خبر آخر ساقه أبو طالب عن شمائل ابن أخيه يبين فيه أنه لا يهتم بأمر الباطل ، ولا يتذرع بـه للوصول إلى ما يريد .

و(لا) هنا نافية للفعل المضارع المبنى للمجهول ، وفى بنـاء الفعل للمجهول وحذف المسند إليه إشارة من أبـى طالـب إلـى أن الاهتمام بأمر الباطل لا يصدر– أبداً – من ابن أخيه، وأنه لا ينبغـى أن يوضع ابن أخيه مع الباطل فى نسق واحد حتى ولو كان فى نظم الكلام ، فهو أبعد ما يكون عن الباطل وأبعد ما يكون الباطل عنـه ، وفى ذلك إشارة أخرى إلى أن دعوته حق لا باطل فيها ، وصـدق لا كذب عند مُبَيِّنها وملقيها . قوله:

فأصبحَ فينا أحمدُ فى أرومةٍ ... يُقَصِّر عنها سُورةُ المتطاوِلِ

الفاء التى صدرها أبو طالب فى أنف البيـت هنـا هـى فـاء السببية، وكأنه لما صار صدق ابن أخيه أمراً معلوماً عنـد القـوم ، بحيث لا يختلف عليه اثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان ، تسبب عن ذلك أن ينال ابن أخيه منزلة رفيعة بين هؤلاء السادة وأولئـك الأماجـد فقال:

(فأصبح) ، والتعبير بالفعل الماضى (أصبح) دليـل علـى تحقق وقوع الفعل وثبوته دونما تردد أوشك فى ذلـك ، ولعـل مـن مستتبعات التراكيب أن فى اصـطفاء (أصـبح) دون (أمسـى) أو (غدا) أو ما إلى ذلك ، ما يدل على الإنارة والإضاءة وانبلاج النـور عن غسق الظلام ، وارتفاع الشمس على قلل الآكام ، وكل ذلك ممـا يبعث فى النفس ارتياحاً وانشراحاً وانفساحا ، مع وضـوح الرؤيـة

واتساع مجال البصر ، وكأنه يريد أن يبين من دلالة قوله: (فأصْبَحَ فينا أحمدٌ فى أَرُوَمةٍ) أن هذا الأمر صار واضحاً معلوماً ، وبَيِّناً موسوماً ، كبيان الصبح لذى عينين ، وظهور الشمس على الثقلين .

ولما أراد الدلالة على تمكنه – ﷺ – من النسب الطاهر والحسب الظاهر ، قَيّد الفعل (أصبح) بـ (فى) الدالة على الظرفية المجازية فقال: (فأصبح فينا) مبالغة فى التمكن من دلالية الفعل على ما يراد منه ، و(أحمدٌ) هو رسول الله ﷺ وتنوينهُ للضرورة الشعرية .

وكأن أبا طالب فى جعله (أحمد) علماً على رسول الله ﷺ قد استسقى ذلك من النبع القرآنى حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا عيسى : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف٦]، وفى ذلك دليل على قرب الرجل مما جاء به الوحى ، لقربة بطبيعة الحال من رسول الله – ﷺ – فهوحاميه وناصره والمدافع عنه بكل ما أوتى من قوة .

وفى تقديم المتعلق (فينا) على المسند إليه (أحمد) دلالة على الاختصاص ، أى اختصاص المجد ببنى هاشم ، واختصاصه– ﷺ – بأعلى درجات المجد فيهم ، ومن ثم قال: (فأصبح فينا أحمد فى أرومة) والأرومة هى: الأصل [١] وفى تنكير (أرومة) دلالة على التعظيم والتفخيم للأصل الذى ينتسب إليه رسول الله ﷺ إذ هو مختار من أكرم الأصلاب ، ومنتخب من أشرف العناصر ، ومرتضى

---

(١) اللسان ١٢/١٢ .

من أعلى المحاتد ، قد ورث المجد كابراً عن كابر ، وأخذ الفخر بين أَسِرّةٍ ومنابر ، واكتسب الشرف على الأصاغر والأكابر ، وهو من مُضرٍ فى سويداء قلبها ، ومن هاشم فى سواد طرفها ، ومن الرسالة فى مهبط وحيها ، ومن الإمامة فى موقف عِزّها [1] فأنَّى لِمَنْ كان هذا أصله ، وتلك منزلته ، أن يدانيه أحد فى درجته ، أو يحاكيه فى علو قدره ورفعته ، ومن ثم قال أبو طالب مبيناً عجز المحاول لمجده وصولا أو لساحة محتده نزولا: (يُقَصِّرُ عَنْها سُورةُ المتطاول) أى يعجز عن الوصول لهذا الشرف وتلك المنزلة كل من أعجبته منزلته وقدره ، ورأى من نفسه الشرف والرفعة ، والتعبير بالمضارع فى قوله (يُقصِّر) دلالة على تجدد العجز واستمراره لمن أراد أن يحاكيه فى شيمه أو يناوؤه فى فضله ونسبه .

والسُورة فى قوله (سُورة المتطاول) بمعنى الشرف والمنزلة، ومن ذلك قول النابغة:

ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أعطاك سُورةً ... تَرىَ كلَّ مُلكٍ دونها يتذبذبُ [2]

والمتطاول: المغالب فى الفضل والشرف ، و(أل) فيه للدلالة على الاستغراق والمعنى: إن شرفه ﷺ ومنزلته فوق كل شرف ومنزلة ، بحيث لا يغلبه أحد فى ذلك بل يعجز عن المغالبة متى أراد، ولا يرى فضله وحسبه فيما ابتغى ينقاد .

---

(١) سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبى ٥٩ ، ٦٠ بتصرف ، تح/عبدالسلام هارون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
(٢) ديوان النابغة الذبيانى ١٩ .

ولما كان أبوطالب يعلم بصدق ابن أخيه وسمودعوته ، وترفعه عن الكذب عن الناس ، فضلاً عن الكذب على الله ، افتخر بحماية هذا النبى الكريم وبالذود عنه ضد معارضيه ومعانديه بالنفس والمـــال ، ومن ثم ختم قصيدته ببيان ذلك فقال:

حدَبتُ بنفسى دُونَه وحَمَيتُه .... ودَافَعتُ عَنه بالذُّرى والكَلاكِلِ

والحَدْبُ فى قوله: (حَدَبْتُ بنفسى دونه) بمعنى المدافعـــة ، يقال: حَدَبَ عنه كـــ (ضَرَبَ) إذا دافع عنه ومنعـــه [1] و(دونـــه) بمعنى (أمامهُ) والمعنى: دافعت بنفسى أمامه لأمنع عنه الأذى من المتعرضين له ، والمناوئين لدعوته ، وفى هـــذا دليـــل علـــى بـــالغ الشجاعة من شيخ البطحاء مع ما عليه من كبر السن .

والتعبير بالماضى فى (حَدَبْتُ) للدلالة على تحقيـــق وقـــوع الحدث ، وأنه دافع عنه بنفسه ، وجاد بها دونه (والجـــود بـــالنفس أعلى غاية الجود) .

ومعنى: حميته: أى حفظته مما يؤذيه ، ومنعت عنـــه غضـــبة الجاهل والسفيه، والذُّرى فى قوله: (ودافعتُ عنه بالذُّرى والكَلاَكـــل) جمع:ذِرْوة، وهى أعلى سنام البعيـــر، وذِرْوة كـــل شـــئ أعـــلاه[2] والكلاكل: جمع: كَلْكَل كجعفر بمعنـــى الصـــدر[3]، فالكلاكـــل بمعنـــى الصدور ، ومعنى البيت:

---

(١) تاج العروس ٢/٢٤٨ .
(٢) اللسان ١٤/٢٨٢ .
(٣) اللسان ١١/٥٩٠ .

أنه دافع عن النبى ﷺ بجميع ما ملك من نفس ومـــال ، وبمـــا أوتى من قوة .

ومما يلاحظ على أبى طالب فى هذا البيت أنه أســـند الأفعـــال الثلاثة :

(حدبتُ ... حميتُ ... دافعتُ) إلى نفسه ؛ ليدل فـــى نهايـــة المطاف على أنه ما قَصَّر فى الدفاع عن رسول الله ﷺ لا بالنفس ولا بالمال ، وليُعلم قريشاً أنه قائد هذه الحماية ، وحامل لـــواء النصـــرة والرعاية لابن أخيه ، وأنه مستمر وثابت فى الدفاع عنه – يقينـــاً – حتى ولوبقى وحده فى ميدان المناصرة والدفاع والمؤازرة ، والتعبير بالماضى فى تلك الأفعال لدلالة على تحقق وقوع الحدث فيها وثبوته ، وأن أمر الدفاع عنه ونصرته ﷺ ثابت لا يتغير مادامت لـــه عـــين تطرف ، أو نفسٌ فى صدره يدخل أويخرج ، ولا يخفى مراعاة النظير بين هذه الأفعال الثلاثة: (حدبت ... حميتُ ... دافعتُ) فكلهـــا مـــن وادٍ واحد ويظللها معنى عام عماده النصرة والتأييد .

كما لا يخفى – كذلك – المجاز المرسل فى قولـــه: (بالـــذرى والكلاكل) حيث أطلق الجزء وأراد الكل ؛ لأنه لم يقصد أنه دافع عنه بأعالى الأشياء وصدورها فقط ، وإنما قصد إلى دافعه عنه بكل شئ كان له عليه يدٌ أوسبيل ، وإنما خصّ الذرى والكلاكـــل لأن أشـــرف الأشياء إنما يكون بأعلاهـــا وصـــدورها ، وهـــولم يبخـــل بأعلاهـــا وصدورها ، فكيف بأدناها وأذنابها ؟ .

فلله دَرُّك ياشيخ البطحاء جزاء ما قدمت للإسلام ورسول الإسلام من حماية ورعاية وعناية

الخاتمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصــلاة والســلام علــى أشــرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فها قد وصلت سفينة هذا البحث إلى نهاية رحلتهــا ، وألقــت عصاها واستقر بها النوى، ومن ثم يجدر بنا فى نهاية هذه الرحلــة أن نضع بين يدى القارئ الكريم أهم النتائج التى خلص إليهــا هــذا البحث ، وهى كالتالى:

أولاً: التشريك والجمع بين أكثر من مُستعاذ به أمرٌ محلق فى سماء سياق الاستعاذة بالله ومقدسات العرب ، كما فى قوله :(ومــن كاشحٍ ، ومِنْ مُلحقٍ ، وثَوْر ومَنْ أرسى ثبيــراً ، وراقٍ لبــرٍّ ، وبالبيت ، وبالله ، وبــالحجر الأســود ، ومــوطىء إبــراهيم ، وأشواط بين المروتين ، وما فيهما من صورة وتماثــل ، ومَــنْ حجَّ ، ومن كل ذى نذر ومن كل راجــل) ومــا ذاك إلا ليقابــل أبوطالب بتلك المقدسات المعطوف بعضها على بعض ، كلَّ مــا حشدته قريش من أفعال وأقوال وأساليب تروم بها وقف الدعوة المحمدية ، لعله ينجو من مكر قريش وأذاها .

ثانياً: ظهر فى تلك اللامية كثرة التعبير بالفعل المضارع ، كما فــى قوله : (يعضون غيظاً ، أعوذ برب الناس ، يسعى لنا بمعيبة ، إذ يمسحونه ، يُطاع بنا الأعدا ، تُسد بنا ، نترك مكة ، ونظعن ، نطاعن دونه ونناضل ، نُصرَّع حوله ، ونُــذهل عــن أبنائنــا ،

وينهض قوم ، يركب ردعه ، يوالى إلهاً ٠٠٠إلخ) وما ذلك إلا لأن الفعل المضارع أبلغ فى نقل الصورة ، وأتم فى نقل الحدث ؛ إذ يجعل لك الحدث ماثلاً أمام عينك ، وكأنك ترى صاحبه وهو يقوم به ويبذل الطاقة فى فعله وبه من الدلالة على إظهار التجدد والاستمرار فى الأفعال التى يحكيها ما لا يكون لغيره ٠

ثالثاً: ومما يرصد فى تلك اللامية كثرة استخدامه لمصادر الأفعال ، كما فى قوله : (وأبيض عَضْب ، وما تَرْكُ قوم ، بَرَاءٌ إلينا ، دَأبَ المحب ، قياماً معاً ، نُهوضَ الرّوايا ، فِعْلَ الأنكب ، أخى ثقة) وما ذالكم إلا للمبالغة فى إثبات تلك الأحداث ، والتأكيد على ما ينضوى تحتها من دلالات ٠

رابعاً: كثر فى تلك اللامية تنكير الصفات التى مدح بها أبو طالب رسول الله –ﷺ – مثل قوله : (بكفىْ فتى ، سميدع ، باسل ، سيداً ، وأبيض ، جمالاً لأهلها ، وزيناً ، حليم ، رشيد ، عادل ، غير طائش) وتنكير مثل تلك الصفات يدل على التعظيم والتفخيم، إبرازها فى ثوب الحسن والكمال ، بحيث سمت فيه على كل صفة كانت فى أعيان الرجال ، وكملت فى ذاته دون غيره من أرباب الصبا والاكتهال ٠

خامساً: شاع فى تلك اللامية ترك العطف بين الصفات التى مدح بها أبو طالب رسول الله – ﷺ – كما فى قوله :

بكفىْ فتى مثل الشهاب سميدع ∴ أخى ثقة حامى الحقيقة باسل

وقوله :(سيداً يحوط الذمار غير ذَرْبٍ مُوَاكلِ) وقوله :(ثمال اليتامى عصمة للأرامل) وقوله : (حليم رشيد عادل غير طائش

٠٠٠يوالى إلهاً) وما ذاك إلا ليدل على أن كل صفة من تلك الصفات رأس بنفسها ، قائمة بذاتها ، مكتملة فيه –عليه الصلاة والســـلام – بحيث لا تحتاج إلى ما يقويها ، أو ما يعلى من شأنها ٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل من نهج نهجه إلى يوم الدين

المصـــادر والمراجـــع

- القرآن الكريم جلَّ مَن أنزله

حرف الألف

١- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ــ تح/ محمود محمد شـــاكر ــ دار المدني ــ جدة ــ ط الأولى ١٤١٢ هـــ ١٩٩١م ٠

٢- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ــ تـــح / عبـــد الحميـــد هنداوي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط الأولـــى ١٤٢٢هـــ ٢٠٠١م ٠

٣- إعجاز القرآن للباقلاني ــ تح / الســـيد أحمـــد صـــقر ــ دار المعارف ــ القاهرة .

٤- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزوينـــي ــ دار إحيـــاء العلوم ــ بيروت ــ ط الرابعة ١٩٩٨م

حرف الباء

٥- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - تح / عادل أحمـــد عبـــد الموجود وآخرين ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط الأولـــى ١٤٢٢هـــ ٢٠٠١م

٦- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ــ عبد المتعال الصـــعيدي ــ مكتبة الآداب ــ ط السابعة عشر ١٤٢٦ه ٢٠٠٥م ٠

٧- البلاغة الواضحة ــ على الجارم ــ دار المعارف ــ القاهرة ٠

حرف التاء

٨- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى ــ تح / مجموعة من المحققين ــ دار الهداية ٠

٩- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع العدواني ــ تح/ حفنى محمد شرف ــ المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية ــ لجنة إحياء التراث ٠

١٠- التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ــ مكتبة وهبة ــ ط السابعة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م٠

١١- التعاريف للمناوي تح / محمد رضوان الداية ــ دار الفكر ــ بيروت ــ ط الأولى ١٤١٠هـ

١٢- تفسير الطبري تح/ أحمد محمد شاكر ــ مؤسسة الرسالة ــ ط الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م ٠

١٣- تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ــ تح / أحمد عبد الموجود ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م ٠

حرف الجيم

١٤- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي تح/ فخر الدين قباوة ــ محمد نديم فاضل ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط الأولى ١٤١٣هـ١٩٩٢م٠

١٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ــ تح/يوسف الصميلى ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ٠

حرف الحاء

١٦- حروف المعاني للزجاجي تح/ على توفيق الحمد ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط الأولى ١٩٨٤م ٠

حرف الخاء

١٧- خزانة الأدب للبغدادى تح/ محمد نبيل طريفي ــ إميل بديع يعقوب ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٩٨م ٠

١٨- خزانة الأدب للحموي ــ تح / عصام شعيتو ــ دار ومكتبة الهلال ــ ط الأولى ١٩٨٧م ٠

١٩- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ــ مكتبة وهبة ــ ط السادسه ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ٠

٢٠- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي الحموي ــ دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة ٠

حرف الدال

٢١- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر تح/ محمد التنجي ــ دار الكتاب العربي ط الأولى ١٩٩٥م ٠

٢٢- ديوان أبي طالب شرح محمد التونجي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ٠

٢٣- ديوان الأعشى ــ شرح د/ محمد حسين ــ مكتبة الآداب بالجماميز ٠

٢٤- ديوان الإمام الشافعي تح/ محمد عبد المنعم خفاجي ــ مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ٠

٢٥- ديوان امرىء القيس شرح عبد الرحمن المصطاوى ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان ــ ط الثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ٠

٢٦- ديوان البوصيري تح/ محمد سيد كيلاني ــ مطبعة مصطفى البايى الحلبى ــ مصر ٠

٢٧- ديوان حسان بن ثابت شرح عبد الرحمن البرقوقي ــ المكتبة الرحمانية ــ مصر ــ ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م ٠

٢٨- ديوان الخنساء شرح لويس شيخو اليسوعى ــ بيروت ــ لبنان ١٨٩٦م ٠

٢٩- ديوان زهير بن أبى سلمى ــ شرح على حسن فاغور ــ دار الكتب العلميــة ــ بيــروت ــ لبنــان ــ ط الأول ١٤٠٨هـــ ١٩٨٨م٠

٣٠- ديوان عنترة بن شداد ــ مطبعة الآداب ــ بيروت١٨٩٣م٠

٣١- ديوان الفرزدق شرح إيليا الحاوى ــ دار الكتب اللبناني ــ ط الأولى ١٩٨٣م ٠

٣٢- ديوان لبيد بن ربيعــة شــرح إحســان عبــاس ــ الكويــت ١٩٦٢م٠

٣٣- ديوان النابعة الذبيانى شرح/ حمدو طماس ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ ط الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م ٠

حرف الراء

٣٤- الروض الأنف للسهيلى تح/ عمر عبد السلام السلامي ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م ٠

حرف الزاى

٣٥- زهرة الأدباء في شرح لامية شيخ البطحاء ــ جعفر النقدى ــ النجف الأشرف ــ المكتبة الحيدرية ١٣٥٦هـ ٠

حرف السين

٣٦- سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي تح/ عبد السلام الحــوفي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان ٠

٣٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي – دار الكتــب العلميــة – بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ٠

٣٨- ٣٧- السنن الكبــرى للبيهقــي – مجلــس إدارة المعــارف النظامية – حيدر آباد الهند ط الأولى ١٢٤٤هـ ٠

٣٩- السيرة الحلبية – دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٠هـ ٠
٤٠- السيرة النبوية لابن كثير تح/ مصطفى عبد الواحد – دار المعرفة – بيروت – ١٣٩٦هـ ١٩٧١ م ٠

حرف الشين

٤١- شرح أحاديث من صحيح البخاري د/ محمد أبوموسى – مكتبة وهبة – ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م ٠
٤٢- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي تح/ عبد السلام هارون – طبعة دار الجيل – بيروت – ١٤١١هـ ١٩٩١م
٤٣- شرح الرضى على الكافية – جامعة قار يونس – ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
٤٤- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبى ٠
٤٥- شعر أبي طالب دراسة أدبية – هناء عباس كشكول – مكتبة الروضة الحيدرية – الكوفة ٠
٤٦- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء – د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط الأولى ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م ٠

حرف الطاء

٤٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندى تح/ يوسف على طويل – دار الفكر – دمشق – ط الأولى ١٩٨٧م
٤٨- صحيح البخاري تح/ مصطفى ديب البغا – دار اليمامة – بيروت – ط الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ٠
٤٩- صحيح ابن حبان تح/ شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط الثانية ١٤١٤هـ١٩٩٣م ٠

حرف الطاء

٥٠- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي تح/ محمود محمد شاكر – دار المدني – جدة .

٥١- طلبة الطالب بشرح لامية أبي طالب – على فهمي – مطبعة الروشن باستامبول – ١٣٢٧هـ .

حرف العين

٥٢- العزف على أنوار الذكر د/ محمود توفيق محمد سعد – ط الأولى ١٤٢٤هـ .

٥٣- العقد الفريد لابن عبد ربه –دار الكتب العلمية– بيروت – ط الأولى ١٤٠٤هـ.

٥٤- العمدة في محاسن الشعراء و آدابه لابن رشيق تح/ محمد محي الدين عبدالحميد – دار الجيل – ط الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

حرف الغين

٥٥- غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب – محمد خليل الخطيب – مطبعة الشعراوي – طنطا – ١٩٥٠م .

حرف الفاء

٥٦- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري – مؤسسة النشر الإسلامي ط الأولى ١٤١٢هـ .

حرف القاف

٥٧- القاموس المحيط للفيروز آبادي – مؤسسة الرسالة – بيروت ط الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

٥٨- قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبوموسى – مكتبة وهبة – ط الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

٥٩- القول المبين في سيرة سيد المرسلين - محمد الطيب النجـــار - دار الندوة الجديدة - بيروت .

حرف الكاف

٦٠- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تح/ علي محمد البجاوى - محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصـــرية - بيـــروت - ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٦١- كتاب العين للخليل بن أحمد تح/ مهدي المخزومي - إبـــراهيم السامرائي - دار و مكتبة الهلال .

٦٢- كتاب الكليات لأبي البقاء الكفومي تح/ عـــدنان درويـــش - محمد المصري - مؤسسة الرســـالة -بيـــروت - ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

٦٣- الكتاب لسيبويه تح/ عبدالسلام هارون - مكتبة الخـــانجي - القاهرة - ط الثالثة - ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٦٤- الكشاف للزمخشري تح/ عبد الرزاق المهـــدي - دار إحيـــاء التراث العربى .

حرف اللام

٦٥- لسان العرب لابن منظور - دار صادر - بيروت - ط الأولى.

حرف الميم

٦٦- المثل الثائر لابن الأثير تح/ محمد محي الدين عبدالحميـــد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥م .

٦٧- مجمع الأمثال للنيسابوري تح/ محمد محي الدين عبدالحميد - دار المعرفة - بيروت .

٦٨- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده - تح/ عبدالحميد هنداوي - دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م .

٦٩- مختار الصحاح تح/ محمود خاطر – مكتبة لبنان – ناشـــرون – بيروت – ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ٠

٧٠- مختصر المعاني لسعد الـــدين التفتـــازني – دار الفكـــر – ط الأولي ١٤١١هـ٠

٧١- المصباح المنير للفيومي – المكتبة العلمية – بيروت ٠

٧٢- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى تح/ محمـــد محي الدين عبدالحميد – عالم الكتـــب – بيـــروت ١٣٦٧هـــ ١٩٤٧م ٠

٧٣- معانى الأبنية في العربية – فاضل صالح السامرائي – الكويت – ط الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م ٠

٧٤- المعجم الوسيط تأليف أحمد الزيات- صادر عن مجمع اللغـــة العربية – دار الدعوة ٠

٧٥- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصـــاري تـــح/ مازن المبارك – دار الفكر – بيروت – ط السادسة – ١٩٨٥م٠

٧٦- مفتاح العلوم للسكاكى تح/ نعيم زرزور – دار الكتب العلمية – بيروت ط الثانية – ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ٠

٧٧- المفردات للراغب الأصفهاني تح/ محمد ســـيد كيلاتـــي – دار المعرفة – لبنان

٧٨- مقايس اللغة لابن فارس تح/ عبدالسلام هارون – دار الفكـــر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م ٠

حرف النون

٧٩- نقد الشعر لقدامة بن جعفر – مطبعة الجوائب – قســـطنطينية – ط الأولى ١٣٠٢هـ٠

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	
سياقات القصيدة	
أولاً: مطلع القصيدة	
ثانياً: المعاداة والصبر عليها	
ثالثاً: الاستعاذة بالله ومقدسات العرب	
رابعاً: النعى على قريش ما فعلت	
خامساً: الحجة على التأييد والنصرة	
سادساً: الافتقار إلى أهل النصرة	
سابعاً: المديح النبوى	
الخاتمة	
المصادر والمراجع	
فهرس الموضوعات	